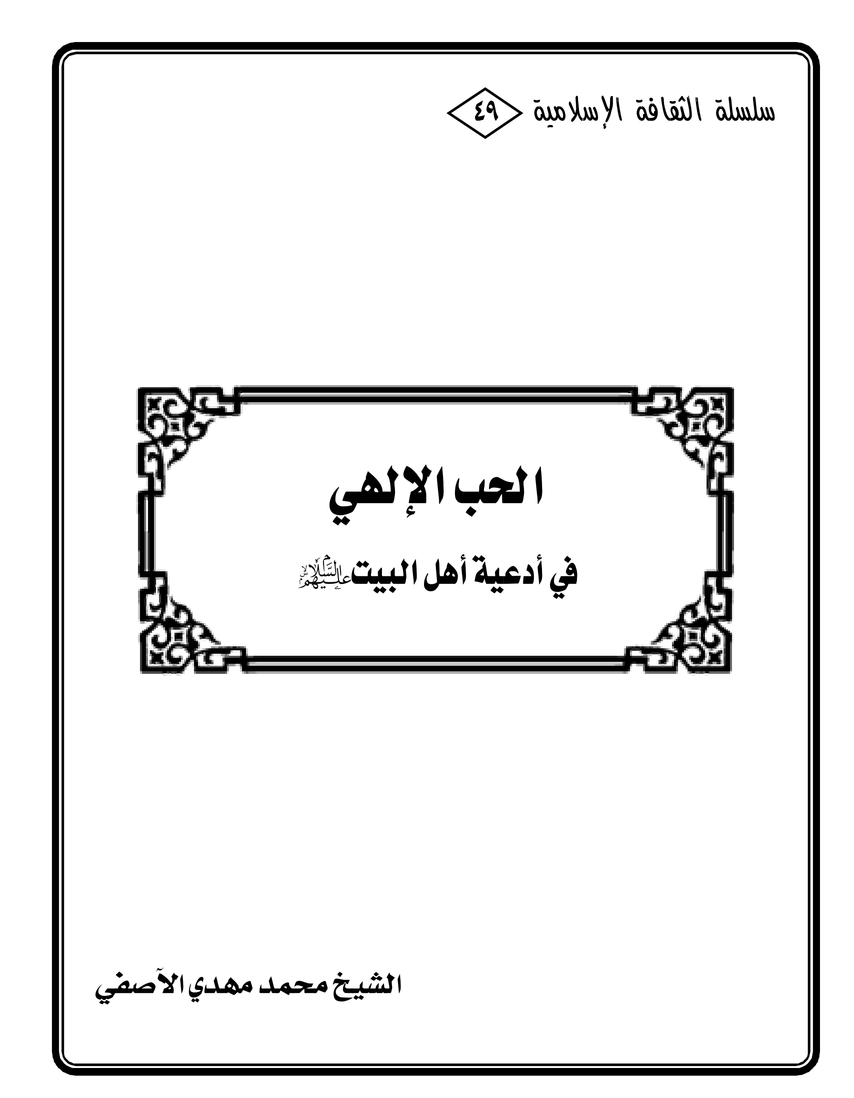


مختارات منتقاة من محاضرات ومؤلفات

الشيخ محمد مهدي الآصفي حفظه الله

اسم الكتاب: .... الحب الإلهي في أدعية أهل البيت عليهم السلام

المؤلف: .... محمّد مهدي الآصفي

الطبعة الأولى: .... ١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩م

الكمية.. ٣٠٠٠ نسخة

المطبعة: .... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

غافر: ٦٠

العلاقة بالله:

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

تتكون العلاقة بالله تعالى في صورتها الصحيحة من مجموعة من العناصر المتناسقة والمتآلفة، هذه العناصر مجتمعةً تكوّن الاسلوب الصحيح للعلاقة بالله تعالى.

وترفض النصوص الإسلامية أن تكون العلاقة بالله تعالى على أساس العنصر الواحد، كالخوف، أو الرجاء، أو الحب، أو الخشوع، وتعتبر العلاقة بالله ذات العنصر الواحد فاقدة لحالة التوازن والتناسق.

والعناصر التي تشكل العلاقةُ بالله تعالى مجموعة واسعة، ورد ذكرها بتفصيل في نصوص الآيات والروايات والأدعية مثل: الرجاء، والخوف، والتضرّع، والخشوع، والتذلل، والوجل، والحب، والشوق،

(١) التوبة: ٢٤.

والأُنس، والإنابة، والتبتّل، والاستغفار، والاستعاذة، والاسترحام، والانقطاع، والتمجيد، والحمد، والرغبة، والرهبة، والطاعة، والعبودية، والذكر، والفقر، والاعتصام.

وقد ورد في الدعاء عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام: «اللّهمّ إنّي أسألك أن تملأ قلبي حبّاً وخشية منك، وتصديقاً لك، وإيماناً بك، وفرَقاً منك، وشوقاً إليك»[1].

ومن هذه العناصر المتعددة يتألّف طيف زاه ومتناسق للعلاقة بالله تعالى، وكل عنصر من هذه العناصر يعتبر مفتاحاً لباب من أبواب رحمة الله ومعرفته.

فالاسترحام مفتاح لرحمة الله تعالى، والاستغفار مفتاح للمغفرة.

كما أنّ كل عنصر من هذه العناصر يعتبر بحدّ ذاته طريقاً للحركة والسلوك إلى الله. فالشوق والحب والأُنس بالله طريق إلى الله، والخوف، والرهبة طريق آخر إلى الله تعالى، والخشوع طريق ثالث إلى الله، والرجاء، والدعاء والتمنّي طريق آخر إلى الله.

وعلى الإنسان أن يسلك ويتحرك إلى الله تعالى من مسالك وطرق

(١) بحار الأنوار ٩٨: ٩٢.

مختلفة، ولا يقتصر على سلوك طريق واحد، فإنّ لكل سلوك نكهة وذوقاً وكمالاً وثمرة في حركة الإنسان إلى الله لا توجد في السلوك الآخر.

ويطرح الإسلام على هذا الأساس مبدأ تعدّدية عناصر العلاقة بالله تعالى.

وهذا بحث واسع وباب رحب من العلم لا نريد أن ندخله الآن.

حب الله تعالى:

وحب الله تعالى من أفضل هذه العناصر، وأقواها، وأبلغها في شدّ الإنسان بالله تعالى، وتحكيم علاقته به عزّ شأنه.

ولا يوجد في ألوان العلاقة بالله لون أقوى وأبلغ من (الحب) في توثيق علاقة العبد بالله.

وقد ورد ذكر هذه المقارنة بين عناصر العلاقة بالله تعالى في مجموعة من النصوص الإسلامية، نذكر بعضها.

روي أنّ الله تعالى أوحى إلى داود: «يا داود ذكري للذاكرين،

وجنّتي للمطيعين، وحبي للمشتاقين، وأنا خاصة للمحبين»[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «الحبّ أفضل من الخوف»[٢].

وروى محمّد بن يعقوب الكليني عن الإمام أبي عبدالله جعفر الصادق عليه السلام: «العبّاد ثلاثة: قوم عبدوا الله عزّوجلّ خوفاً، فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب، فتلك عبادة التّجار، وقوم عبدوا الله عزّوجلّ حبّاً، فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة»[٣].

وروى الكليني عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أفضل الناس من عشق العبادة، فعانقها، وأحبّها بقلبه، وباشرها بجسده، وتفرّغ لها، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا على عسر أم يسر»[٤].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «نجوى العارفين تدور على ثلاثة أُصول: الخوف، والرجاء، والحب. فالخوف فرع العلم، والرجاء فرع اليقين، والحب فرع المعرفة. فدليل الخوف الهرب، ودليل الرجاء الطلب،

---

(١) بحار الأنوار ٩٨: ٢٢٦.

(٢) بحار الأنوار ٧٨: ٢٢٦.

(٣) أُصول الكافي ٢: ٨٤.

(٤) أُصول الكافي ٢: ٨٣.

ودليل الحب إيثار المحبوب على ما سواه. فاذا تحقّق العلم في الصدر خاف، وإذا صحّ الخوف هرب، وإذا هرب نجا وإذا أشرق نور اليقين في القلب شاهد الفضل، وإذا تمكّن من رؤية الفضل رجا، وإذا وجد حلاوة الرجاء طلب، وإذا وُفّق للطلب وجد. وإذا تجلّى ضياء المعرفة في الفؤاد هاج ريح المحبّة، وإذا هاج ريح المحبّة استأنس ظلال المحبوب، وآثر المحبوب على ما سواه، وباشر أوامره. ومثال هذه الأُصول الثلاثة كالحرم والمسجد والكعبة، فمن دخل الحرم أمن من الخلق، ومن دخل المسجد أمنت جوارحه أن يستعملها في المعصية، ومن دخل الكعبة أمن قلبه من أن يشغله بغير ذكر الله»[1].

وعن رسول الله ﷺ: «بكى شعيب عليه السلام من حب الله عزّوجلّ حتّى عمي... أوحى الله إليه: يا شعيب، إن يكن هذا خوفاً من النار، فقد أجرتك، وإن يكن شوقاً إلى الجنة فقد أبحتك. فقال: إلهي وسيّدي، أنت تعلم أني ما بكيت خوفاً من نارك، ولا شوقاً إلى جنّتك، ولكن عقد حبك على قلبي، فلست أصبر أو أراك، فأوحى الله جلّ جلاله إليه: أمّا إذا كان هذا هكذا فمن أجل هذا سأُخدمك كليمي موسى بن

(١) مصباح الشريعة: ٢ ـ ٣.

عمران»[1].

وفي صحيفة إدريس عليه السلام: «طوبى لقوم عبدوني حبّاً، واتخذوني إلهاً وربّاً، سهروا الليل، ودأبوا النهار طلباً لوجهي من غير رهبة ولا رغبة، ولا لنار، ولا جنّة، بل للمحبة الصحيحة، والإرادة الصريحة والانقطاع عن الكلّ إليّ»[2].

وفي الدعاء عن الإمام الحسين عليه السلام: «عميتْ عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً»[3].

الإيمان والحبّ:

وقد رُوي في النصوص الإسلامية أنّ الإيمان حب.

فعن الإمام الباقر عليه السلام: «الإيمان حب وبغض»[4].

وعن الفضيل بن يسار قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الحب والبغض، أمِن الإيمان هو؟ فقال: وهل الإيمان إلاّ الحب والبغض؟»[5].

(١) بحار الأنوار ١٢: ٣٨٠.
(٢) بحار الأنوار ٩٥: ٤٦٧.
(٣) بحار الأنوار ٩٨: ٢٢٦.
(٤) بحار الأنوار ٧٨: ١٧٥.
(٥) أُصول الكافي ٢: ١٢٥.

وعن الصادق عليه السلام: «هل الدين إلاّ الحب؟ إنّ الله عزّوجلّ يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾[1]»[2].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «الدين هو الحب والحب هو الدين»[3].

لذّة الحبّ:

والعبادة إن كانت عن حبّ وشوق ولهفة فلا تفوقها لذة وحلاوة.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام وهو ممّن ذاق حلاوة حبّ الله وذكره: «إلهي ما أطيب طعم حبّك وما أعذب شربَ قُربك»[4].

وهي حلاوة ولذة مستقرّةٌ في قلوب أولياء الله، وليست لذّة عارضةً تعرض حيناً، وترتفع حيناً. وإذا استقرّت لذة حب الله في قلب العبد، فذلك قلب عامر بحب الله، ولن يعذّب الله قلب عبد عَمَرَ بحبّه، واستقرّت فيه لذّة حبه.

يقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «إلهي وعزَّتكَ وجلالكَ لقد أحببتُكَ محبةً استقرَّتْ حلاوتُها في قلبي، وما تنعقدُ ضمائرُ موحِّديكَ على أنّكَ

(١) آل عمران: ٣١.

(٢) بحار الأنوار ٦٩: ٢٣٧.

(٣) نور الثقلين ٥: ٢٨٥.

(٤) بحار الأنوار ٩٨: ٢٦.

تبغضُ مُحبّيكَ»[1].

وعن هذه الحالة المستقرّة والثابتة من الحبّ الإلهي يقول الإمام علي بن الحسين عليهما السلام: «فوعزّتك يا سيدي لو انتهرتني ما برحت من بابك، ولا كففت عن تملّقك، لما انتهى إليَّ من المعرفة بجودك وكرمك»[2].

وهو من أبلغ التعبير في عمق الحب واستقراره في القلب، فلا يزول ولا يتغيّر في قلب العبد حتى لو نهره مولاه، وأبعده من جنابه، وحاشاه أن يفعل ذلك بعبد استقرّ حبه في قلبه.

وإذا عرف الإنسان طعم حبّ الله ولذّة الأُنس به فلا يؤْثر عليه شيئاً. يقول زين العابدين وإمام المحبّين عليه السلام: «من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام عنك بدلاً؟ ومن ذا الذي أَنِسَ بقربك فابتغى عنك حِوَلاً؟»[3].

وإنّما يتوزّع الناس على المسالك والمذاهب؛ لأنّهم حُرِموا لذّة حب الله. وأمّا الذين عرفوا لذة حبّ الله فلا يبحثون بعد ذلك عن

(١) مناجاة أهل البيت: ٩٦ ـ ٩٧.

(٢) بحار الأنوار ٩٨: ٨٥.

(٣) بحار الأنوار ٩٤: ١٤٨.

شيء آخر في حياتهم.

يقول الإمام الحسين بن علي عليه السلام: «ماذا وجد من فقدك؟! وما الذي فقد من وجدك؟!»[1].

ويستغفر عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام من كلّ لذّة غير لذّة حب الله، ومن كل شغل غير الاشتغال بذكر الله، ومن كلِّ سرور بغير قرب الله، لا لأنّ الله تعالى حرّم على عباده ذلك، ولكن لأنّ ذلك من انصراف القلب عن الله وإِشتغاله بغير الله، ولو زمناً قصيراً، ولا ينصرف قلبٌ عرف لذّة حب الله، عن الله.

وكل شيء وكل جهد في حياة أولياء الله يأتي في امتداد حبّ الله، وذكر الله، وطاعة الله، وكلّ شيء عدا ذلك فهو انصراف عن الله، ويستغفر الله منه. يقول عليه السلام: «وأستغفرك من كلّ لذّة بغير ذكرك، ومن كلِّ راحة بغير أُنسك، ومن كلّ سرور بغير قربك، ومن كلّ شغل بغير طاعتك»[2].

(١) بحار الأنوار ٩٨: ٢٢٦.

(٢) بحار الأنوار ٩٤: ١٥١.

الحبّ يجبر عجز العمل:

والحب لا ينفصل عن العمل، فمن أحبّ كانت أمارة حبّه العمل والحركة والجهد. ولكنّ الحب يجبر عجز العمل، ويشفع لصاحبه كلّما قصر عمله، وهو شفيعٌ مُشفَّعٌ عند الله تعالى.

يقول زين العابدين عليه السلام في دعاء الأسحار الذي يرويه عنه أبو حمزة الثمالي وهو من جلائل الأدعية: «معرفتي يا مولاي دليلي عليك، وحُبّي لك شفيعي إليك، وأنا واثق من دليلي بدلالتك، ومن شفيعي إلى شفاعتك»[1].

ونعم الدليل والشفيع المعرفة والحب، فلا يضيع عبد دليلُه إلى الله (المعرفة)، ولا يقصر عبد عن الوصول والبلوغ إذا كان شفيعه إلى الله (الحب).

يقول الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام: «إلهي إنّك تعلم أني وإن لم تَدُم الطاعة منّي فعلاً جزماً، فقد دامت محبّةً وعزماً».

وهو إشارة رقيقة من رقائق كلمات الإمام، فإنّ الطاعة قد تقصر بالإنسان، ولا يتمكّن أن يثق بطاعته لله، ولكن ما لا سبيل إلى الشك

(١) بحار الأنوار ٩٨: ٨٢.

فيه للمحبّين هو اليقين والجزم بحبّهم لله تعالى، وعزمهم على المضيّ في الحب والطاعة، وهذا ممّا لا يرتاب فيه عبد وجد حب الله في قلبه، فقد يقصِّر العبد في طاعة، وقد يرتكب ما يكرهه الله ولا يحبه من معصية، ولكن ما لا يمكن أن يكون ـ وهو يقصّر في الطاعة ويرتكب المعصية ـ أن يكره الطاعة ويحبّ المعصية.

فإنّ الجوارح قد تنزلق إلى المعاصي، ويستدرجها الشيطان والهوى إليها، وقد تقصّر الجوارح في طاعة الله، ولكن قلوب الصالحين من عباد الله لا يدخلها غير حبّ الله وحب طاعته وكراهية معصيته.

وفي الدعاء: «إلهي أُحبُّ طاعتَكَ وإنْ قَصَرْتُ عنها، وأكرهُ معصيتَكَ وإن ركَبْتُها، فتفضَّلْ عليَّ بالجنة»[1].

وهذه هي الفاصلة بين الجوارح والجوانح، فإنّ الجوارح قد تَقْصُرُ عن اللحوق بالجوانح، فانّ جوانح الصالحين تخلص لله وتخضع لسلطان حب الله بشكل كامل، فَتَقْصُرُ عنها الجوارح، إلاّ أن القلب إذا خلص وطاب فلابدّ أن تنقاد له الجوارح وتطيعه. ولابدّ أن تنفّذ

(١) بحار الأنوار ٩٤: ١٠١.

الجوارح ما تطلبه وتريده الجوانح، وتنعدم عند ذلك هذه الفاصلة بين الجوارح والجوانح بسبب إخلاص القلب.

الحب يجير الإنسان من العذاب:

وإذا كانت الذنوب تسقط الإنسان في عين الله، وتعرّضه لعقاب الله وعذابه فإنّ (الحب) يجير الإنسان من عذاب الله وعقابه.

ففي المناجاة عن عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «إلهي إنّ ذنوبي قد أخافتْني، ومحبَّتي لكَ قد أجارَتني»[1].

درجات الحبّ وأطواره:

وللحب في قلوب العباد درجات ومراحل.

فمن الحب حب ضحل ضئيل، لا يكاد يُحسّ به صاحبه.

ومن الحب ما يملأ قلب العبد، ولا يترك في قلبه فراغاً لشأن آخر ممّا يلهو به الناس ويشغلهم عن ذكر الله.

ومن الحبّ ما لا يرتوي معه العبد من ذكر الله ومناجاته والوقوف بين يديه، ولا ينتهي ظمأُ فؤادِه من الذكر، والدعاء، والصلاة، والعمل

(١) بحار الأنوار ٩٤: ٩٩.

في سبيل الله، مهما طال وقوفه، وعمله، وصلاته بين يدي الله.

وفي الدعاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «سيّدي أنا من حبّك جائع لا أشبع، وأنا من حبّك ظمآن لا أُروى، وا شوقاه إلى من يراني ولا أراه»[1].

يقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في المناجاة: «وغُلّتي لايُبردها إلاّ وَصلُك، ولوعَتي لايطفؤها إلاّ لقاؤك، وشوقي إليك لا يَبُلُّه إلاّ النظرُ إليك»[2]

ومن حب الله (الوله) و(الهيام)، ففي (زيارة أمين الله): «اللّهمّ إنّ قلوب المخبتين إليك والهة»[3].

وفي دعاء الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «إلهي بك هامت القلوب الوالهة... فلا تطمئنّ القلوب إلاّ بذكراك، ولا تسكن النفوس إلاّ عند رؤياك»[4].

وهذه خاصّة القلوب الوالهة والهائمة لا تسكن ولا تطمئن إلاّ

(١) بحار الأنوار ٩٤: ٣٣٨ عن إقبال الأعمال.

(٢) بحار الأنوار ٩٤: ١٤٩.

(٣) مفاتيح الجنان.

(٤) بحار الأنوار ٩٤: ١٥١.

بذكر الله.

ومن أروع الحب وأبلغه ما نجده في كلمات أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في الدعاء الذي علّمه لكميل بن زياد النخعي رضي الله عنه والمعروف بدعاء كميل: «فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربّي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك؟ وهبني صبرتُ على حرّ نارك فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك؟ أم كيف أسكن في النار ورجائي عفوك؟!»[1].

وهو من أروع لفتات الحب وأصدقها. فهب أنّ العبد يصبر على عذاب نار مولاه، فكيف يصبر على هجره وفراقه وغضبه؟!

والمحب قد يتحمّل عقوبة مولاه، ولكن لا يتحمّل غضبه ومقته له، وقد يتحمّل النار وهي من أقسى العقوبات ولكن لا يتحمّل هجر مولاه وفراقه.

وكيف يسكن العبد في نار جهنم وهو يرجو أن يعطف عليه مولاه وينقذه منها؟

وهذان (الحب) و(الرجاء) اللذان لا يفارقان قلب العبد ـ وهو

(١) مفاتيح الجنان.

يصلى في نار جهنم بغضب من الله تعالى ـ من أروع صور هذا الدعاء الجليل.

فقد يحبّ العبد مولاه، وهو يتنعّم بنعمته وفضله، وهو بالتأكيد من الحب، ولكن الحب الذي لا يزيد عليه حب أن لا يفارق الحب والرجاء قلب العبد وهو يصلى بنار عذاب مولاه.

يقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في دعاء الأسحار الّذي علّمه لأبي حمزة الثمالي رضي الله عنه: «فوعزّتك لو انتهرتني ما برحت من بابك ولا كففت عن تملّقك لما اُلهم قلبي من المعرفة بكرمك وسعة رحمتك. إلى من يذهب العبد إلاّ إلى مولاه؟! وإلى من يلتجئ المخلوق إلاّ إلى خالقه؟! إلهي لو قرنتني بالأصفاد، ومنعتني سيبك من بين الأشهاد، ودللتَ على فضائحي عيون العباد، وأمرت بي إلى النار، وحلت بيني وبين الأبرار ما قطعتُ رجائي منك، وما صرفتُ تأميلي للعفو عنك، ولا خرج حبّك من قلبي»[1].

وهذا هو أصدق الحب، والرجاء، والأمل، وأنقاه وأصفاه، لا يكاد يخرج من قلب العبد حتى لو قرنه مولاه بالأصفاد، ومنعه سيبه من بين

(١) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.

الأشهاد، ودلّ على فضائحه عيون العباد.

ولنتابع استعراض هذه الصور الرائعة من الحب والرجاء التي يرسمها الإمام علي عليه السلام في هذا الدعاء الجليل (دعاء كميل): «فبعزّتك يا سيدي ومولاي اُقسم صادقاً لئن تركتني ناطقاً لأضجنَّ إليك بين أهلها ضجيج الآملين، ولأصرخنّ إليك صراخ المستصرخين، ولأبكينّ عليك بكاء الفاقدين، ولأُنادينّك أين كنت يا وليّ المؤمنين؛ يا غاية آمال العارفين، يا غياث المستغيثين، يا حبيب قلوب الصادقين، ويا إله العالمين.

أفتراك سبحانك يا إلهي وبحمدك تسمع فيها صوت عبد مسلم سجن فيها بمخالفته، وذاق طعم عذابها بمعصيته، وحبس بين أطباقها بجرمه وجريرته، وهو يضجّ إليك ضجيج مؤمّل لرحمتك، ويناديك بلسان أهل توحيدك، ويتوسّل إليك بربوبيتك، يا مولاي، فكيف يبقى في العذاب وهو يرجو ما سلف من حلمك؟ أم كيف تؤلمه النار وهو يأمل فضلك ورحمتك؟ أم كيف يحرقه لهيبها وأنت تسمع صوته وترى مكانه؟ أم كيف يشتمل عليه زفيرها وأنت تعلم ضعفه؟ أم كيف يتغلغل بين أطباقها وأنت تعلم صدقه؟ أم كيف تزجره زبانيتها

وهو يناديك يا ربّه؟ أم كيف يرجو فضلك في عتقه منها فتتركه فيها؟ هيهات، ما ذلك الظن بك، ولا المعروف من فضلك، ولا مشبه لما عاملت به الموحّدين من برّك وإحسانك، فباليقين أقطع لو لا ما حكمت به من تعذيب جاحديك وقضيت به من إخلاد معانديك، لجعلت النار كلّها برداً وسلاماً، وما كان لأحد فيها مقراً ولا مقاماً»[1].

قال لي صديق، من ذوي الفضل والأدب: إن خصلة البطولة والشجاعة خصلة أصيلة في عليّ﴿ع﴾، لا تفارقه حتى في الدعاء بين يدي رب العالمين. فها هو في الدعاء الذي علّمه لكميل يتصوّر أن النار قد احتوت العبد المذنب، وأحاطت به من كل جانب، فلا يسكت ولا يسكن ولا يستسلم للعذاب والعقوبة، كما هو مقتضى الحال فيمن أطبق عليه العذاب واحتوشته زبانية النار، وإنما يضج ويبكي ويصرخ ويهتف وينادي.

ألا تراه كيف يعبّر عن هذه الحالة في دعاء الله؟

«فبعزّتك يا سيدي ومولاي أُقسم صادقاً لئن تركتني ناطقاً لأضجّن إليك بين أهلها ضجيج الآملين، ولأصرخنّ إليك صراخ

(١) مفاتيح الجنان، دعاء كميل.

المستصرخين، ولأبكينّ عليك بكاء الفاقدين، ولأُنادينّك أين كنت يا ولي المؤمنين».

قلت له: لمْ تصب في تذوق كلام عليّ﴿ع﴾، ولو كان﴿ع﴾ بهذا الصدد لم يقل في مقدمة هذا الخطاب «لو تركتني ناطقاً». أما أنا فأتصور الحالة النفسية لعليّ﴿ع﴾ في هذه الكلمات بين يدي الله تعالى حالة الطفل الصغير الذي لم يعرف في دنياه غير عطف أُمه، ورحمتها، وحبها وحنانها ملجأً وملاذاً. فكلّما داهمه أمر أو أضرّ به شيء لجأ إلى أُمه، واستغاث بها واستنجدها، فإذا ارتكب مخالفة وتعرض لعقوبة من أُمه، وأراد أن يلجأ إلى طرف يحميه من عقوبتها نظر إلى أطرافه فلم يجد ملاذاً وملجأً غيرها، فيحتمي بها، ويستنجدها، ويستغيث، ويلوذ بها، كما كان يفعل عندما يتعرض لأذىً من غيرها.

وهذا هو حال عليّ﴿ع﴾ في هذا الدعاء. إنّه تعلَّم بقلبه الكبير، وأُفقه الواسع الرحب أن يلجأ إلى الله، ويستغيث به، ويلوذ به، ولا يعرف غيره ملجأً ولا ملاذاً.

فهو سبحانه وتعالى، ملجأه وملاذه الوحيد الذي لا يعرف غيره.

فإذا تصوّر أنّ الله تعالى قد أحاطه بعذابه وعقوبته[1] فلا يتردد لحظة واحدة أن يلجأ إلى الله، ويلوذ به، ويستنجد به، ويستغيث به كما كان يفعل كل مرة. أوَليس هو سبحانه ملاذه وملجأه الوحيد؟ فلماذا يتردد هذه المرة أن يستنجد ويستغيث به؟!

يقول زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام في تصوير هذا المعنى في المناجاة: «فإن طردتني من بابك فبمن ألوذ؟ وإن رددتني عن جنابك فبمن أعوذ؟ إلهي هل يرجع العبد الآبق إلاّ إلى مولاه؟ أم هل يجيره من سخطه أحد سواه؟»[2].

ويقول عليه السلام في الدعاء الذي علّمه لأبي حمزة الثمالي: «وأنا يا سيدي عائذ بفضلك هارب منك إليك»[3].

ويقول علي بن الحسين عليه السلام في نفس الدعاء: «إلى من يذهب العبد إلاّ إلى مولاه؛ وإلى من يذهب المخلوق إلاّ إلى خالقه»[4].

---

(١) نحن نستعير هنا كلمات علي عليه السلام نفسه، ولو لم يقل ذلك لم نجرؤ أن نتحدث عن العلاقة بينه وبين الله تعالى بهذه الطريقة.

(٢) بحار الأنوار ٩٤: ١٤٢.

(٣) بحار الأنوار ٩٨: ٨٤.

(٤) بحار الأنوار ٩٨: ٨٨.

والهروب من الله إلى الله من رقائق المعاني والأفكار في علاقة العبد بالله، وهذه المشاعر التي يصوّرها علي عليه السلام في علاقة العبد بالله هي من أرقّ مشاعر (الحب) و(الرجاء)، وأصدقها في نفوس المحبين.

وعلي عليه السلام لا يذهب مذهب الشعراء في هذه الفقرة من الدعاء في الاستعانة بالخيال في إكمال رسم هذه اللوحة الرائعة من الدعاء، وإنما هو صادق كل الصدق في التعبير عن إحساسه وشعوره هذا بين يدي الله.

ولذلك فهو يعقب هذه اللوحة من (استغاثة العبد بربّه) بلوحة أُخرى في نجدة الله لعبده.

فليس يمكن فيما نعرف من رحمة الله وفضله أنّ الله تعالى يخيّب هذا الإحساس الصادق والصافي والنقي من العبد في الحب والرجاء، فيردّ حبه ويخيّب رجاءه، يقول عليه السلام: «فكيف يبقى في العذاب وهو يرجو ما سلف من حلمك؟ أم كيف تؤلمه النار وهو يأمل فضلك ورحمتك؟ أم كيف يحرقه لهيبها وأنت تسمع صوته وترى مكانه؟ أم كيف يشتمل عليه زفيرها وأنت تعلم ضعفه؟ أم كيف يتغلغل بين أطباقها وأنت تعلم صدقه؟ أم كيف تزجره زبانيتها وهو يناديك يا

ربه؟».

فهل يمكن أن تقود الزبانية العبد إلى النار وتزجره فيها، وهو ينادي الله ربّه، ويهتف به، ويلوذ به بلسان أهل توحيده؟

إنّ ما سبق من حلمه وفضله في حياتنا ينفي ذلك نفياً قاطعاً مطلقاً. والإمام يستدلّ بحلم الله على حلمه وفضله على فضله: «وهو يرجو ما سلف من حلمك». والإمام عليه السلام قاطع في هذا الجانب من القضية (الخط النازل) في علاقة الله بعبده كما كان قاطعاً وصريحاً في الطرف الآخر من القضية (الخط الصاعد) في علاقة العبد بالله.

فكما كان قاطعاً وصريحاً في أنّ القلوب التي ذاقت حلاوة حبّه ورجائه، لايفارقها حبها ورجاؤها لله، ولن تستبدل بحب الله ورجائه حبّاً ورجاءً، حتى لو أحاط بها عذاب الله وعقابه... كذلك هو قاطع وصريح أن الله تعالى لا يخيّب مثل هذا الحب والرجاء الصادقَين في قلب العبد.

تأمّلوا في هذا الجزم والقطع والصراحة في كلام علي عليه السلام: «هيهات ما ذلك الظن بك، ولا المعروف من فضلك، ولا مشبه لما عاملت به الموحّدين من برّك وإحسانك، فباليقين أقطع لو لا ما

حكمت به من تعذيب جاحديك، وقضيت به من إخلاد معانديك، لجعلت النار كلّها برداً وسلاماً، وما كانت لأحد فيها مقراً ولا مقاماً»[١].

وهذا الجزم والقطع في علاقة العبد الذي أحب مولاه (الصاعدة) وعلاقة المولى بعبده (النازلة) نجده في مواضع أُخرى من كلمات علي عليه السلام. فها هو يخاطب الله تعالى في مناجاته المشهورة: «إلهي وعزتك وجلالك لقد أحببتك محبةً استقرّت حلاوتها في قلبي، وما تنعقد ضمائر موحديك على أنك تبغض محبيك»[٢].

وفي مناجاة الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «إلهي نفسٌ أعززتها بتوحيدك كيف تذلّها بمهانة هجرانك؛ وضمير انعقد على مودّتك كيف تحرقه بحرارة نيرانك»[٣].

ويقول عليه السلام أيضاً في دعاء الأسحار من شهر رمضان الذي علّمه لأبي حمزة الثمالي رضي الله عنه: «أفتراك يا رب تخلف ظنوننا، أو تخيّب آمالنا؟ كلاّ يا كريم، فليس هذا ظنُّنا بك، ولا هذا طمعنا فيك. يا رب

(١) مفاتيح الجنان: دعاء كميل.
(٢) مناجاة أهل البيت: ٦٨ ـ ٦٩.
(٣) بحار الأنوار ٩٤: ١٤٣.

إنّ لنا فيك أملاً طويلاً كثيراً، إنّ لنا فيك رجاءً عظيماً...»[١].

حالتا الشوق والأُنس في الحب:

للحب ظهوران: فقد يبرز الحب على صورة (الشوق)، وقد يبرز الحب على صورة (الأُنس)، وكلتاهما حالتان تعبّران عن الحب، إلاّ أنّ حالة (الشوق) تنتاب المحب عندما يكون بعيداً عمّن يحبه، وحالة (الأُنس) تنتاب المحب عندما يكون بحضور حبيبه.

وهاتان الحالتان متواردتان على قلب العبد تجاه الله تعالى. فإن لله تعالى تجلّيين، يتجلّى للعبد عن بُعد تارة وعن قرب أُخرى: «الذي بَعُدَ فلا يُرى وقَرُبَ فشهد النجوى»[٢].

وعندما يتجلّى للعبد عن بُعد تنتاب العبد حالة الشوق، وعندما يتجلى للعبد عن قرب، ويحسّ العبد بحضورمولاه ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾[٣]، ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾[٤]، ﴿**وَإِذَا

(١) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٢) مفاتيح الجنان، دعاء الافتتاح.

(٣) الحديد: ٤.

(٤) ق: ١٦.

سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ**﴾[١]، تنتاب العبد حالة (الأُنس).

وفي دعاء الافتتاح عن الإمام الحجة المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) تصوير دقيق لهاتين الحالتين: «الحمد لله الذي لا يُهتك حجابه ولا يُغلق بابه»[٢].

ولا شك أنّ الذي لا يُهتك حجابه هو الذي لا يُغلق بابه... ولكن شتّان بين الله تعالى من خلال هذا التصور أو ذاك.

و(الحجاب) حجابان: حجاب ظلمة وحجاب نور، فقد تمنع الإنسان من الرؤية شدة الظلمة، وكثافة الحجب الظلامية، وهذا حجاب الظلمة.

وقد تمنع الإنسان من الرؤية شدّة الوهج والنور، كما يعجز الإنسان عن رؤية الشمس ليس لحاجز أو مانع، وإنّما لشدة وهج الشمس، وهذا هو حجاب النور.

وحجب الظلمة في علاقة الإنسان بالله تعالى هي (حب الدنيا) و(مقارفة السيئات) و(ما يرين على القلب).

وحجاب النور في علاقة الإنسان بالله تعالى شيء غير ذلك، وهو

(١) البقرة: ١٨٦.

(٢) مفاتيح الجنان، دعاء الافتتاح.

الحجاب الذي لا يُهتك كما يقول الإمام الحجة عليه السلام في هذا الدعاء.

وهذا الحجاب هو الذي يهيّج الشوق واللهفة في قلوب العباد. يقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام عن هذه الحالة من الشوق واللهفة إلى الله في مناجاته:

«وغُلّتي لا يبرّدها إلاّ وصلُك، ولوعتي لا يطفيها إلاّ لقاؤك وشوقي إليك لا يبلّه إلاّ النظر إلى وجهك، وقراري لا يقرّ دون دُنوّي منك، ولهفتي لا يردّها إلاّ رَوحُك، وسقمي لا يشفيه إلاّ طبّك، وغمّي لا يزيله إلاّ قُربُك، وجُرحي لا يبرؤه إلاّ صفحك، ورَين قلبي لا يَجلوه إلاّ عفوك... فيا منتهى أمل الآملين، ويا غاية سؤل السائلين، ويا أقصى طلبة الطالبين، ويا أعلى رغبة الراغبين ويا وليّ الصالحين، ويا أمان الخائفين، ويا مجيب دعوة المضطرّين، ويا ذخر المعدمين، ويا كنز البائسين»[1].

وفي مقابل هذا التجلّي نحوٌ آخر من التجلّي، وهو تجلّي الله لعباده دون أن يغلق باباً بينه وبين عباده، يسمع نجواهم، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد، يحول بين المرء وقلبه، ولا يخفى عليه شيء مما يخطر

(١) بحار الأنوار ٩٤: ١٥٠.

على قلوب عباده، فيشعر العبد أنه بحضور مولاه، يتهيّب أن يخالفه ويعصيه، ويأنس بذكره، ويسكن إلى مناجاته ودعائه، ويطيل المناجاة، والذكر والدعاء، والوقوف بين يديه.

وفي حديث قدسي، يقول الله لبعض أنبيائه، وهو سبحانه يصف قيامهم له في ظلمات الليل، وقد هدأ الناس واستسلموا للنوم: «ولو تراهم وهم يقومون لي في الدجى، وقد مثلت نفسي بين أعينهم يخاطبوني، وقد جللت عن المشاهدة ويكلموني، وقد عززت عن الحضور»[1].

فلا يملّ العبد الوقوف بين يدي الله، ولا يشعر بمرور الوقت؛ أو رأيت إن كان الإنسان بمحضر حبيب من الأحبّاء الذين تهوي إليهم نفسه، هل يملّ أو يشعر بمرور الوقت؟ فكيف لو كان الإنسان يشعر أنه بحضور الله؟ يسمعه، ويراه، ويسمع خطابه وكلامه، وهو معه؛ ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾.

فيسكن ويطمئن إلى ذكر الله ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[2].

(١) لقاء الله: ١٠١.

(٢) الرعد: ٢٨.

يقول الإمام المهدي الحجة عجل الله فرجه في دعائه المعروف بـ(الافتتاح): «فصرت أدعوك آمناً وأسألك مستأنساً، لا خائفاً ولا وجلاً، مدلاً عليك فيما قصدت فيه إليك»[1].

ولا شك أنّ هذه الحالة من الأُنس بالله، والسكون إلى الله، والإحساس بالأمن في كنف الله حالة نابعة من الإحساس بحضور الله وقربه ومعيّته، وهي من أفضل حالات العبد تجاه ربه، ولكنها ليست تمثل كلّ شي في علاقة الإنسان بالله، بل لابدّ أن تقترن بحالة (الشوق) حتى تكتمل وتتوازن وتتناسق.

وهاتان الحالتان بارزتان في عبادة أولياء الله وعبادة الصالحين وعلاقتهم بالله، فقد يكون طابع الشوق واللهفة هو الغالب على عباداتهم وعلاقتهم بالله، وقد يكون طابع الأُنس والسكون والاطمئنان هو الغالب على عباداتهم وذكرهم وعلاقتهم بالله، وقد يكون هذا وذاك، وهو أفضل الأحوال وأسلمها، وأقرب إلى حالة التوازن والتناسق في العلاقة بالله.

عن حمّاد بن حبيب العطّار الكوفي، قال: «خرجنا حجّاجاً فرحلنا

(١) مفاتيح الجنان، دعاء الافتتاح.

من (زبالة)[1] ليلاً، فاستقبلتنا ريح سوداء مظلمة، فتقطّعت القافلة فتهت في تلك الصحاري والبراري، فانتهيت إلى واد قفر، فلمّا أن جنّ الليل أويت إلى شجرة عادية، فلمّا أن اختلط الظلام إذا أنا بشاب قد أقبل، عليه أطمار بيض، تفوح منه رائحة المسك، فقلت في نفسي: هذا وليّ من أولياء الله متى ما أحسَّ بحركتي خشيت نفاره وأن أمنعه عن كثير ممّا يريد فعاله. فأخفيت نفسي ما استطعت. فدنا إلى الموضع فتهيّأ للصلاة، ثمَّ وثب قائماً وهو يقول: يا من أحاز كلَّ شيء ملكوتاً، وقهر كلَّ شيء جبروتاً، أَوْلِجْ قلبي فرح الإقبال عليك، وألحقني بميدان المطيعين لك. قال: ثمَّ دخل في الصلاة...

فلما أن تقشّع الظلام وثب قائماً وهو يقول: يا من قصده الطالبون فأصابوه مرشداً، وأمّه الخائفون فوجدوه متفضّلاً، ولجأ إليه العابدون فوجدوه نوالاً، متى وجد راحة من نصب لغيرك بدنه، ومتى فرح من قصد سواك بنيّته، إلهي قد تقشّع الظلام ولم أقض من خدمتك وطراً، ولا من حاضّ مناجاتك مدراً، صلِّ على محمّد وآله، وافعل بي أولى الأمرين بك يا أرحم الراحمين. قال: فخفت أن يفوتني شخصه، وأن

(١) منزل على طريق الحجاج من العراق.

يخفى عليَّ أثره فتعلّقت به، فقلت له: بالّذي أسقط عنك ملال التعب، ومنحك شدَّة الشوق لذيذ الرَّغْبة... من أنت؟ فقال لي: أمّا إذا أقسمت فأنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب»[1].

وقال الأصمعي: «كنت أطوف حول الكعبة ليلة، فإذا شابٌّ ظريف الشمائل وعليه ذؤابتان، وهو متعلّق بأستار الكعبة وهو يقول: نامت العيون، وعلت النجوم وأنت الملك الحيُّ القيوم، غلّقت الملوك أبوابها، وأقامت عليها حرَّاسها، وبابك مفتوح للسائلين، جئتك لتنظر إليَّ برحمتك يا أرحم الراحمين.

ثمَّ أنشأ يقول:

يا من يجيب دعا المضطرٍّ في الظلم
يا كاشف الضرِّ والبلوى مع السّقم
قد نام وفدك حول البيت قاطبة
وأنت وحدك يا قيّوم لم تنم
أدعوك ربّ دعاءً قد أمرت به
فارحم بكائي بحقِّ البيت والحرم

(١) بحار الأنوار ٤٦: ٧٧ ـ ٧٨.

إن كان عفوك لا يرجوه ذو سرف
فمن يجود على العاصين بالنعم

قال: فاقتفيته فإذا هو زين العابدين عليه السلام»[1].

وقال طاووس الفقيه: «رأيته يطوف من العشاء إلى السحر ويتعبّد، فلمّا لم ير أحداً رمق السماء بطرفه، وقال: إلهي غارت نجوم سماواتك، وهجعت عيون أنامك، وأبوابك مفتّحات للسائلين، جئتك لتغفر لي وترحمني وتريني وجه جدّي محمّد في عرصات القيامة. ثمَّ بكى وقال: وعزَّتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك، وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاكٌّ، ولا بنكالك جاهل، ولا لعقوبتك متعرّض، ولكن سوّلت لي نفسي وأعانني على ذلك سترك المرخى به عليَّ، فالآن من عذابك من يستنقذني؟ وبحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عنّي؟ فواسوأتاه غداً من الوقوف بين يديك، إذا قيل للمخفّين جُوزوا، وللمثقلين حطّوا، أ مع المخفّين، أجوز؟ أم مع المثقلين أحطّ؟ ويلي كلّما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما آن لي أن أستحي من ربّي؟ ثمَّ بكى وأنشأ يقول:

(١) بحار الأنوار ٤٦: ٨٠ ـ ٨١.

أحرقنـــي بالنـــار يـــا غايـــة المنـــى

فـــأين رجـــائي ثـــمَّ أيـــن محبّتـــي

أتيـــــت بأعمـــــال قبـــــاح زريّـــــة

ومـا فـي الـورى خلـق جنـى كجنـايتي

ثم بكى وقال: سبحانك تُعصى كأنّك لا تَرى، وتَحلم كأنّك لم تُعصَ. تتودّد إلى خلقك بحسن الصنيع كأنَّ بك الحاجة إليهم، وأنت يا سيّدي الغنيُّ عنهم. ثمَّ خرَّ إلى الأرض ساجداً. قال: فدنوت منه وشِلت برأسه ووضعته على ركبتي وبكيت حتّى جرت دموعي على خدِّه، فاستوى جالساً وقال: من الّذي أشغلني عن ذكر ربّي؟ فقلت: أنا طاووس يابن رسول الله ما هذا الجزع والفزع؟ ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا ونحن عاصون جانون. أبوك الحسين بن عليّ وأُمّك فاطمة الزهراء، وجدُّك رسول الله ﷺ. قال: فالتفت إليَّ وقال: هيهات هيهات يا طاووس دع عنّي حديث أبي وأُمّي وجدّي خلق الله الجنّة لمن أطاعه وأحسن، ولو كان عبداً حبشيّاً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولداً قرشيّاً. أما سمعت قوله تعالى:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءلُونَ﴾[1] والله لاينفعك غداً إلاّ تَقْدِمَةٌ تقدِّمها من عمل صالح»[2].

وعن حبّة العرني: «بينا أنا و(نوف) نائمين في رحبة القصر، إذ نحن بأميرالمؤمنين عليه السلام في بقية من الليل، واضعاً يده على الحائط شبه الواله، وهو يقول: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾**[3] ثم جعل يقرأ هذه الآيات، ويمر شبه الطائر عقله فقال: أراقد يا حبة أم رامق؟

قلت: رامق، هذا أنت تعمل هذا العمل فكيف نحن؟!

فأرخى عينه فبكى، ثم قال لي: يا حبة إنّ لله موقفاً ولنا بين يديه موقف، فلا يخفى عليه شيء من أعمالنا، يا حبة إنّ الله أقرب إليك وإليَّ من حبل الوريد، يا حبة إنّه لن يحجبني ولا إياك عن الله شيء ثم قال: أراقد أنت يا نوف؟

قال: لا يا أميرالمؤمنين ما أنا براقد، ولقد أطلت بكائي هذه الليلة... ثم وعظهما وذكرهما، وقال في أواخره: فكونوا من الله على حذر فقد أنذرتكما ثم جعل يمرّ وهو يقول:

(١) المؤمنون: ١٠١.

(٢) بحار الأنوار ٤٦: ٨١ ـ ٨٢.

(٣) آل عمران: ١٩٠.

ليت شعري في غفلاتي أمعرض أنت عني أم ناظر إليَّ وليت شعري في طول منامي وقلة شكري في نعمك عليّ ما حالي؟

قال: فوالله ما زال في هذه الحالة حتى طلع الفجر»[1].

ونصوص الأدعية والمناجاة الواردة من أهل البيت عليهم السلام: غنيّة بهذه الصور الحيّة والمتحركة والمعبّرة عن (الأُنس) و(الشوق)، وبشكل خاص المناجاة الخمس عشرة التي يرويها العلاّمة المجلسي في البحار عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام حافلة بصور من (الأُنس) و(الشوق).

ونحن نجد في تراث أهل البيت عليهم السلام: كنزاً غنياً من هذه الصور والمعاني، قلّما نجده عند غيرهم.

وها نحن نذكر بعض هذه الصور قبل أن نفارق هذا البحث: «إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً، ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولاً؟

إلهي فاجعلنا ممن اصطفيته لقربك وولايتك وأخلصته لودّك ومحبتك، وشوّقته إلى لقائك، ورضّيته بقضائك، ومنحته النظر إلى

(١) فلاح السائل لابن طاووس: ٢٦٦.

وجهك، وحبوته برضاك، وأعذته من هَجرك وقلاك، وبوّأته مقعد الصدق في جوارك، وخصصته بمعرفتك، وأهّلته لعبادتك، وهيّمت قلبه لإرادتك، واجتبيته لمشاهدتك، وأخليت وجهه لك، وفرّغت فؤاده لحبك، ورغّبته فيما عندك، وألهمته ذكرك، وأوزعته شكرك، وشغلته بطاعتك، وصيّرته من صالحي بريتك، واخترته لمناجاتك، وقطعت عنه كل شيء يقطعه عنك.

اللّهمّ اجعلنا ممّن دأبهم الارتياح إليك والحنين، ودهرهم الزفرة والأنين، جباههم ساجدة لعظمتك، وعيونهم ساهرة لخدمتك، ودموعهم سائلة من خشيتك، وقلوبهم متعلقة بمحبتك، وأفئدتهم منخلعة من مهابتك. يا من أنوار قدسه لأبصار محبيه رائقة، وسبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة، ويا منى قلوب المشتاقين، ويا غاية آمال المحبّين أسألك حبك وحب من يحبك، وحب كل عمل يوصلني إلى قربك، وأن تجعلك أحب إليَّ مما سواك، وأن تجعل حبي إيّاك قائداً إلى رضوانك، وشوقي إليك ذائداً عن عصيانك، وامنن بالنظر إليك عليّ، وانظر بعين الود والعطف إليَّ، ولا تصرف عني وجهك»[1].

(١) بحار الأنوار ٩٤: ١٤٨.

وهذه فقرات من الدعاء زاخرة بمفاهيم الحب والشوق والأنس، ولست أريد التعليق، فلن أستطيع أن أزيد الفقرات من الدعاء جمالاً على جمالها وبياناً على بيانها، ولست ممن يحسن التعليق على روائع آيات الدعاء والحب والأدب.

وأول ما يلفت النظر في هذه الفقرات النداء الذي ينادي به الإمام ربه سبحانه وتعالى: «يا منى قلوب المشتاقين، ويا غاية آمال المحبين...». «يا من أنوار قدسه لأبصار محبيه رائقة، وسبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة».

ومطالب الإمام في هذا الدعاء ثلاثة، وهي أعظم ثلاثة يطلبها العبد من ربه.

١ـ فهو يطلب من الله أولاً أن يصطفيه لنفسه، ويخلص قلبه لحبه، ويخلي وجهه لوجهه الكريم، ويرغبه فيما عنده، ويفرغ فؤاده لحبه، ويلهمه ذكره، ويقطع عنه كل ما يقطعه عنه، ويصرف عنه كلّ ما يصرفه عنه.

وهذه البداية ضرورية للحركة التي يطلبها الإمام من الله تعالى، والتي يحدّد غايتها بالنظر إلى وجه الله، ومن دون هذه البداية، لا

يمكن أن يتحرك الإنسان هذه الحركة الصعبة والشاقة إلى قمّة لقاء الله، والنظر إلى وجهه الكريم، وإنه لراحة لكل نبيّ وصدّيق.

ولئن كان النظر إلى وجه الله رزقاً يرزقه الله تعالى من يشاء ويصطفي من عباده، فلابدّ أن يطلب العبد أن يرزقه الله تعالى هذا الرزق بمفاتحه، فإنّ الله تعالى إذا رزق أحداً من عباده رزقاً رزقه من أبوابه ومفاتحه، وسبّب له أسبابه.

والذين يطلبون من الله تعالى أن يرزقهم من غير أبوابه، وبغير مفاتحه يدعون الله تعالى على خلاف سننه وقوانينه التي سنّها لعباده.

والأبواب التي منها يدخل الإنسان، ومنها ينطلق إلى قمّة لقاء الله ومشاهدة وجهه الكريم هي:

أولاً: تفريغ القلب من كل رين وهمّ وحب وتعلّق بالدنيا، وهو ما يسمّيه العلماء بـ(التخلية)، أي إخلاء القلب من كل همّ وتعلّق لغير الله تعالى.

فيقول الإمام: «واجعلنا ممن أخلصته لودّك ومحبتك، وأخليت وجهه لك، وفرّغت فؤاده لحبك، وقطعت عنه كلّ شيء يقطعه عنك».

وهذه هي النقطة الأُولى في البداية، وهي نقطة سلبية.

والنقطة الثانية في البداية هي (التحلية) في مقابل (التخلية) كما يقول العلماء. وهي نقطة إيجابية يلحظها الإمام في الطلبات التالية: «واجعلني ممن رضّيته بقضائك، وحبوته برضاك، وخصصته بمعرفتك، وأهّلته لعبادتك، ورغّبته فيما عندك، وألهمته ذكرك، وأوزعته شكرك، وشغلته بطاعتك، وصيّرته من صالحي بريّتك، واخترته لمناجاتك».

«واجعلنا ممن جباههم ساجدة لعظمتك، وعيونهم ساهرة في خدمتك، ودموعهم سائلة من خشيتك، وأفئدتهم منخلعة من رهبتك».

وهذه البداية (بنقطتيها) هي مفتاح الحركة إلى الله، وهي المنطلق التي منها ينطلق الإنسان إلى غاية لقاء الله ومشاهدة جلال وجهه الكريم وجماله. وهذا هو الطلب الأول.

٢ـ والطلب الثاني مترتب على الطلب الأول، وهي المرحلة الوسطى في هذه الحركة الصاعدة إلى الله، ومن دونه لا يمكن أن يتحرك الإنسان إلى الله، ويصل إلى جواره وقربه ﴿**فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ**﴾[١].

(١) القمر: ٥٥.

والمركب الذي يحمل الإنسان إلى هذه الغاية التي يتمنّاها كل نبي وولي وصدّيق وشهيد، هو (الحب) و(الأُنس بالله) و(الشوق إلى الله) ومن دون الحب، والشوق، والأُنس لا يمكن أن يرقى الإنسان هذا المرتقى الرفيع إلى الله.

والحب والشوق والأُنس رزق من عند الله، من دون شك، يرزقه الله تعالى من يجتبي ويصطفي من عباده. ولكن بعد مقدمات ذكرها الإمام عليه السلام نجدها مبثوثة في فقرات هذه المناجاة.

ويلحّ الإمام في هذا الطلب، ويتوسل إلى ذلك بمختلف الوسائل والتعابير. فهو ينادي الله تعالى بهذا النداء الرائع: «يا منى قلوب المشتاقين ويا غاية آمال المحبين».

ثم يطلب منه الحب، وحبّ من يحب وحبّ كل عمل يوصله إلى قربه وجواره.

ولنتأمل في كلمات الإمام مباشرة فإنّ التعليق يضيّع علينا فرصة النظر المباشر إلى آفاق هذا الحب التي يفتحها الإمام علينا في هذا الدعاء: «أسألك حبّك، وحبّ من يحبّك، وحبّ كل عمل يوصلني إلى قربك، وأن تجعلك أحبَّ إليَّ مما سواك، وأن تجعل حبي إيّاك

قائداً إلى رضوانك، وشوقي إليك ذائداً عن عصيانك، وامنن بالنظر إليك عليّ، وانظر بعين الود والعطف إليَّ، ولا تصرف عنّي وجهك».

ويقول: «واجعلنا ممن شوّقته إلى لقائك، وأعذته من هجرك وقلاك، وهيَّمت قلبه لإرادتك».

ثم يقولؑ: «اللّهمّ اجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك والحنين، ودهرهم الزفرة والأنين... قلوبهم متعلقة بمحبتك، وأفئدتهم منخلعة من مهابتك».

وخلاصة المطالب في هذه الفقرة أربعة:

١ـ أن يعيذنا هجره وقلاه.

٢ـ أن يرزقنا حبه ومودته.

٣ـ أن يرزقنا الأُنس به.

٤ـ أن يرزقنا الشوق إلى لقائه.

ويختصر الإمام (الأُنس والشوق) في هذه الجملة الرائعة: «واجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك والحنين».

فإنّ الارتياح إلى الله غير الحنين إليه، وكلاهما يطلبه الإمام من الله. والارتياح هو الأُنس المنبعث من اللقاء، والحنين هو الشوق

المنبعث من الحركة إلى اللقاء.

٣ـ والمرحلة الثالثة من هذه الرحلة العلوية إلى الله في هذا الدعاء الجليل هي غاية الغايات، وأشرف ما يطلبه النبيون والصدّيقون من الله. وهي طلب النظر إلى جلال وجهه وجماله البهي، وأنه غاية لا ينالها إلاّ صفوة الصفوة ممن يصطفيهم الله تعالى لقربه وجواره.

يقول الإمامؑ: «واجعلنا ممّن منحته النظر إلى وجهك وبوّأته مقعد الصدق في جوارك، واجتبيته لمشاهدتك... وامنن بالنظر إليك عليّ».

ويا لها من حاجة أن ينظر الإنسان إلى وجه ربه، ويشاهد جلاله وجماله عن قرب، ويقعد عنده في مقعد صدق بجواره، ويسقيه ربه شراباً طهوراً.

صورة أُخرى:

صورة أُخرى من صور الشوق والأُنس في أدعية الإمام زين العابدينؑ: «إلهي فاسلك بنا سبل الوصول إليك، وسيّرنا في أقرب الطرق للوفود عليك. قرّب علينا البعيد، وسهِّل علينا العسير الشديد، وألحقنا بعبادك الذين هم بالبدار إليك يسارعون، وبابك على الدوام

يطرقون، وإيّاك بالليل والنهار يعبدون، وهم من هيبتك مشفقون الذين صفّيت لهم المشارب، وبلّغتهم الرغائب، وأنجحت لهم المطالب، وقضيت لهم من فضلك المآرب، وملأت لهم ضمائرهم من حبّك، وروّيتهم من صافي شربك فبك إلى لذيذ مناجاتك وصلوا، ومنك أقصى مقاصدهم حصّلوا. فيا من هو على المقبلين عليه مقبل، وبالعطف عليهم عائد مفضل، وبالغافلين عن ذكره رحيم رؤوف، وبجذبهم إلى بابه ودود عطوف... أسالك أن تجعلني من أوفرهم منك حظّاً، وأعلاهم عندك منزلاً، وأجزلهم من ودّك قسْماً، وأفضلهم في معرفتك نصيباً. فقد انقطعت إليك همتي، وانصرفت نحوك رغبتي، فأنت لا غيرك مرادي، ولك لا لسواك سَهَري وسهادي، ولقاؤك قرة عيني، ووصلك منى نفسي، وإليك شوقي، وفي محبتك ولهي، وإلى هواك صبابتي، ورضاك بغيتي، ورؤيتك حاجتي، وجوارك طلبي، وقربك غاية سؤلي، وفي مناجاتك روحي وراحتي، وعندك دواء علّتي، وشفاء غلّتي، وكشف كربتي، فكن أنيسي في وحشتي ومُقيل عثرتي، وغافر زلّتي، وقابل توبتي، ومجيب دعوتي، ووليّ عصمتي، ومُغني فاقتي، ولا تقطعني عنك، ولا تبعدني منك، يا نعيمي وجنتي،

ويا دنياي وآخرتي»[1].

وهذه قطعة جليلة من جلائل المناجاة، ورائعة من روائع أدب الدعاء، وغرّة من غرر كلمات أهل البيت(عليهم السلام): في الدعاء والتضرّع والحب، صادرة عن قلب واله بحب الله، مشتاق إلى لقاء الله، وهي تستحق الكثير من التأمل والوقوف.

ونقتصر على الإشارة السريعة إلى بعض الصور والأفكار للحب الإلهي التي تزخر بها هذه المناجاة.

في البدء يطلب زين العابدين(عليه السلام) من الله أن يأخذ بيده ويسلك به سبل الوصول إليه وهو خلاصة ما في هذا الدعاء، وأجلّ ما فيه من المطالب. فلا يطلب الإمام في هذا الدعاء من الله تعالى دنيا ولا آخرة، وإنه لطلب مشروع يحبه الله، ولكنه يطلب القرب، والوصول والجوار، في مقعد صدق عنده مع الأنبياء والشهداء والصدّيقين. يقول(عليه السلام): «إلهي فاسلك بنا سبل الوصول إليك». ولا يقول الإمام (سبيل الوصول إليك) بصيغة المفرد، وإنّما يقول: (سبل الوصول) بصيغة الجمع، ذلك لأنّ (الصراط) إلى الله تعالى واحد لا يتعدد، ولم يذكر القرآن لله

(١) بحار الأنوار ٩٤: ١٤٨.

تعالى إلاّ صراطاً واحداً.

يقول تعالى: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾[1] ويقول: ﴿وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]. ويقول: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3]. ويقول: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4].

أمّا (السبيل) فقد ورد بصيغة الجمع في الحق والباطل في القرآن كثيراً.

يقول تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ﴾[5]. ويقول: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[6].

---

(١) الفاتحة: ٦ ـ ٧.

(٢) البقرة: ٢١٣.

(٣) المائدة: ١٦.

(٤) الأنعام: ٨٧.

(٥) المائدة: ١٦.

(٦) الأنعام: ١٥٣.

﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾[1].

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

فقد جعل الله تعالى للناس إليه سُبلاً كثيرة يسلكونها إليه وقد اشتهر على لسان العلماء: «إنّ الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق». وكل هذه الطرق والسبل تجري على صراط الله المستقيم، ولكن جعل الله تعالى لكل إنسان طريقاً يعرف به ربه، ويسلكه إليه.

فمن الناس من يسلك إليه سبيل العلم والعقل، ومنهم من يسلك إليه سبيل القلب والفؤاد، ومن الناس من يعرف الله بالتجارة والتعامل مع الله، وأنه من أفضل السبل أن يتعرف الإنسان على الله من خلال التعامل المباشر مع الله والأخذ والعطاء. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ

---

(١) إبراهيم: ١٢.

(٢) العنكبوت: ٦٩.

(٣) الصف: ١٠.

﴿رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[1].

ويطلب زين العابدين عليه السلام هنا من الله تعالى أن يسلك به سبل الوصول إليه، لا سبيلاً واحداً، فكلما سلك الإنسان إلى الله تعالى مسالك وسبلاً أكثر كان وصوله إلى جوار الله وقربه أوكد وأقوى وأبلغ.

ثم يسأل الله تعالى بعد ذلك أن يلحقه بأهل البدار من عباده الصالحين الذين يسارعون إلى الله ويطوون ليلهم ونهارهم على طاعة الله وعبادته.

والطريق إلى الله صعب عسير، وعن هذا الطريق يعبّر القرآن بـ(ذات الشوكة). وكثيرون أولئك الذين بدأوا السير على هذا الطريق بعزم وصدق، ثم تساقطوا أثناء الطريق.

وزين العابدين عليه السلام يسأل الله أن يقرّب عليه البعيد، ويسهّل عليه العسير، في هذه الرحلة الشاقة، وأن يلحقه بالصالحين الذين سبقوه (وهو إمام الصالحين) فإنّ رفقة الأولياء والصالحين على طريق ذات الشوكة، تشدّ على قلوب الجميع، وتزيد من عزمهم على مواصلة

(١) البقرة: ٢٠٧.

الطريق.

إنّ السير إلى الله صعب، فإذا كان جمع من الصالحين يسيرون على هذا الطريق، يتماسكون، ويتواصون بالحق، ويتواصون بالصبر... خفّ عليهم السير على طريق ذات الشوكة.

يقول علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في طبيعة هذه الرحلة الشاقة والطويلة، وفي طلب التقريب والتخفيف والالتحاق بالصالحين، على هذا الطريق: «وسيّرنا في أقرب الطرق للوفود عليك. قرّب علينا البعيد، وسهّل علينا العسير الشديد، وألحقنا بعبادك الذين هم بالبدار إليك يسارعون، وبابك على الدوام يطرقون، وإيّاك بالليل والنهار يعبدون».

واردات القلوب ورواشحها:

ويصف الإمام هؤلاء الصالحين الذين يسأل الله تعالى أن يلتحق بهم بهذا الوصف الجليل الذي يستحق الكثير من التفكير والتأمّل: «الذين صفّيت لهم المشارب، وبلّغتهم الرغائب... وملأت لهم ضمائرهم من حبك، وروّيتهم من صافي شربك».

فما هو هذا الشراب الصافي الطهور الذي يسقيهم ربهم في الدنيا؟

وأيّ إناء هذا الإناء الذي يملأه الله من حبه؟

إنّ هـذا الشـراب الصـافي هـو شـراب (الحـب) و(اليقـين) و(الإخلاص) و(المعرفة). والإناء هو (القلب).

وقد رزق الله تعالى الإنسان أوعية كثيرة للمعرفة واليقين والحب، ولكن (القلب) هو أعظم هذه الأواني جميعاً وأوعاها.

فإذا صفّى الله تعالى لعبده شرب قلبه، وسقاه شراباً صافياً طهوراً، كان عمله وكلامه وعطاؤه أيضاً صافياً ونقياً مثل شرابه.

فإنّ بين واردات القلب وصادراته تشابهاً ومسانخة. فإذا كانت واردات القلب نقية صافية، من نمير نقي عذب، كانت صادرات القلب تشبهها، فيكون فعل العبد، وكلامه، ورأيه، وأخلاقه، وموقفه، وعطاؤه صافياً عذباً. وإذا كانت واردات القلب قذرة أو مشوبة بالقذارة مما يوحيه الشياطين إلى أوليائهم، كانت صادرات القلب لا محالة تشبهها من كذب ونفاق وشحّ وإعراض عن الله ورسوله.

عن رسول الله ﷺ: «إنّ في القلب لمّتين: لمّة من الملك، وإيعاد بالخير وتصديق بالحق، ولمّة من العدو: إيعاد بالشر وتكذيب للحق. فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، ومن وجد الآخر فليتعوّذ بالله من

الشيطان؛ ثم قرأ ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً**﴾[1]»[2].

ولمّة الملك هي الواردات الربّانية إلى القلب. ولمّة الشيطان هي الواردات الشيطانية إلى القلب.

أرأيت (النحل) إذا أخذ من رحيق الأزهار أعطى الناس عسلاً حُلواً شهياً، فيه شفاء للناس، وإذا أخذ طعامه من موارد غير صافية وغير نقية كان عطاؤه كذلك، بطبيعة الحال.

يقول تعالى عن خليله ونبيه إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿**وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ**﴾[3].

وإنّ هذا الوصف الجليل الذي يصف الله تعالى به عطاء هؤلاء الأنبياء الكبار، وهو القوة والبصيرة: (الأيدي والأبصار) هو نتيجة هذا

---

(١) البقرة: ٢٦٨.

(٢) تفسير الميزان ٢: ٤٠٤.

(٣) سورة ص: ٤٥ ـ ٤٧.

الشرب الخالص الذي آتاهم الله تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾.

ولو لا أنّ الله تعالى أخلصهم بهذه الخالصة من ذكرى الدار، لم تكن لهم قوة ولا بصيرة[1].

إذن لكي يصفو عمل الإنسان لابدّ من أن يصفو شربه، والقلب يعطي ما يأخذ.

أصل الاختيار:

وإذا وضّحنا دور واردات القلب وما يصدر عنه، والتشابه والتسانخ بين هذا وذاك، فلابدّ أن نقول: إنّ هذا الكلام لا ينفي بالضرورة أصل الاختيار الذي هو أساس لكثير من المفاهيم والأفكار القرآنية. وليس معنى ذلك أنّ القلب وعاء فارغ يتلقّى ويعطي ما يلقى إليه من خير وشر، بل القلب وعاء واع، يعي ما يلقى إليه، ويفرز الحق عن الباطل

(١) هناك علاقة تبادلية (جدلية) بين واردات القلب وصادراته، فإذا حسنت واردات القلب حسنت صادراته... والعكس أيضاً صحيح، فإن الإنسان إذا حسنت أفعاله أحسن الله إليه بخالصة ذكرى الدار، وإذا ساءت أفعاله حجب الله تعالى عنه صافي الشرب، وأوكل أمره إلى نفسه، يشرب من حيث يوحي إليه الشيطان والهوى، ومما يشرب الناس على مائدة الشيطان والهوى.

والخير عن الشر.

وهذا أصل آخر اصيل من أُصول التفكير الإسلامي، وعلى هذا الأصل، (وعي القلب)، وذاك: (الاختيار) تتوقف مسائل وأُصول وقضايا كثيرة في الإسلام.

وقد ورد في النصوص الإسلامية تأكيد كثير على الدور الواعي للقلب في حياة الإنسان من قدرة على التشخيص ومن كفاءة عالية على فرز الحق عن الباطل.

روي أن داود عليه السلام، ناجى ربه فقال: «إلهي لكل ملك خزانة، فأين خزائنك؟ فقال جلّ جلاله: لي خزانة أعظم من العرش، وأوسع من الكرسي، وأطيب من الجنّة، وأزين من الملكوت، أرضها المعرفة، وسماؤها الايمان، وشمسها الشوق، وقمرها المحبة، ونجومها الخواطر، وسحابها العقل، ومطرها الرحمة، وشجرها الطاعة، وثمرها الحكمة، ولها أربعة أركان: التوكل والتفكير، والأُنسُ، والذكر. ولها أربعة أبواب: العلم والحكمة والصبر والرضا... ألا وهي القلب»[1].

والنص ـ كما هو بيّن ـ يتحدّث في السؤال والجواب بلغة الرمز، وهي لغة معروفة في النصوص الإسلامية.

(١) بحار الأنوار ١٥: ٣٩.

وروي أنّ الله تعالى قال لموسى: «يا موسى جرّد قلبك لحبّي، فإني جعلت قلبك ميدان حبي، وبسطت في قلبك أرضاً من معرفتي، وبنيت في قلبك شمساً من شوقي، وأمضيت في قلبك قمراً من محبتي، وجعلت في قلبك عيناً من التفكّر وأدرت في قلبك ريحاً من توفيقي، وأمطرت في قلبك مطراً من تفضّلي، وزرعت في قلبك زرعاً من صدقي، وأنبتّ في قلبك أشجاراً من طاعتي، ووضعت في قلبك جبالاً من يقيني»[1].

وهذا النص أيضاً يتحدّث بلغة الرمز. وكلا النصين يشرحان الدور الواعي للقلب في فرز الحق عن الباطل والهدى من الضلال.

عودة إلى المناجاة:

ثم ينادي عليه السلام الله تعالى بهذا النداء الرقيق: «فيامن هو على المقبلين عليه مقبل، وبالعطف عليهم عائد مُفضل، وبالغافلين عن ذكره رحيم رؤوف، وبجذبهم إلى بابه ودود عطوف».

وهذا النداء يتضمَّن نقطتين:

أنّ الله تعالى يُقبل على من يقبل عليه ويعود عليهم بفضله.

---

(١) بحار الأنوار ١٥: ٣٩.

ويعطف على الغافلين عنه، ويذهب عنهم الغفلة بالجذبات الربانية.

وبعد هذه البداية يطلب زين العابدين عليه السلام من الله تعالى أن يجعله من أوفر أهل الصلاح حظّاً من رحمته، وأرفعهم منزلةً، وأجزلهم قسماً، يقول عليه السلام: «أسألك أن تجعلني من أوفرهم منك حظاً، وأعلاهم عندك منزلاً، وأجزلهم من ودّك قسماً، وأفضلهم في معرفتك نصيباً».

وتثير هذه الفقرة من الدعاء هذا السؤال: لقد كان الإمام يتمنى أن يلحقه الله تعالى بهم قبل قليل، والآن يتمنى أن يجعله الله من أوفرهم حظاً وأعلاهم منزلة عنده فكيف نضم هذا السؤال إلى جنب ذلك السؤال؟ وما الذي حدث في جو الدعاء وفي الجو النفسي للإمام حين الدعاء، بحيث أدّى إلى هذه القفزة في الطلب والسؤال من طلب اللحوق بالصالحين إلى طلب التقدم عليهم وإمامتهم؟

إنّ الإجابة عن هذا السؤال تتطلب شرح سرٍّ من أسرار الدعاء. فقد علّمنا الله تعالى أن لا نفتّر في السؤال، ولا نبخل في الدعاء، إذا كان المولى كريماً. وما أقبح البخل في السؤال عندما يكون المسؤول كريماً. لا حدّ لخزائن رحمته، ولا نفاد لها، ولا تزيده كثرة العطاء إلاّ

جوداً وكرماً[1].

وقد علّمنا الله تعالى فيما علّمنا من آداب (عباد الرحمن) وأخلاقهم أن نطلب من الله تعالى أن يجعلنا للمتقين إماماً ﴿**وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾[2].

ونقرأ في الدعاء الوارد عن المعصومين: كثيراً هذه الفقرة الطموحة «وآثرني ولا تُؤْثِر عليَّ أحداً».

الدعاء قاع وقمّة:

لكثير من الأدعية قاع وقمة، أمّا القاع فهو يجسّد موضع العبد وما ركب من السيئات والذنوب، وأمّا القمّة فهي تمثّل طموحه وأمله في الله سبحانه وتعالى ولا حدّ لكرمه وجوده وخزائن رحمته.

وفي دعاء الأسحار يذكر زين العابدين عليه السلام هذا الفاصل النفسي بين القاع والقمة، يقول عليه السلام: «إذا رأيتُ مولاي ذنوبي فزعتُ، وإذا

(١) في دعاء الافتتاح «الحمد لله الفاشي في الخلق أمره وحمده، الظاهر بالكرم مجده، الباسط بالجود يده الذي لا تنقص خزائنه، ولا تزيده كثرة العطاء إلاّ جوداً وكرماً إنه هو العزيز الوهاب».

(٢) الفرقان: ٧٤.

رأيتُ كرمك طمعتُ»[1].

ويقول عليه السلام في الدعاء نفسه: «عظم يا سيدي أملي، وساء عملي فأعطني من عفوك بمقدار أملي، ولا تؤاخذني بأسوء عملي».

وفي الدعاء الذي علّمه أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لكميل بن زياد رضي الله عنه يبدأ من القاع فيقول: «اللّهمّ اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم، اللّهمّ اغفر لي الذنوب التي تنزل النقَم، اللّهمّ اغفر لي الذنوب التي تغيّر النعم، اللّهمّ اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء... اللّهمّ لا أجد لذنوبي غافراً، ولا لقبائحي ساتراً، ولا لشيء من عملي القبيح بالحسن مبدلاً غيرك... سبحانك وبحمدك ظلمت نفسي، وتجرّأت بجهلي، وسكنت إلى قديم ذكرك لي ومنّك عليّ... اللّهمّ عظم بلائي، وأفرط بي سوء حالي، وقصرت بي أعمالي، وقعدت بي أغلالي، وحبسني عن نفعي بعد أملي، وخدعتني الدنيا بغرورها، ونفسي بجنايتها ومطالي... فأسالك بعزتك أن لا يحجب عنك دعائي سوء عملي وفعالي، ولا تفضحني بخفيّ ما اطلعت عليه من سرّي...».

وهذا (القاع) هو حضيض العبوديّة وما يكتنفها من سيئات. ثم

(١) دعاء أبي حمزة الثمالي.

ننتهي في أواخر الدعاء إلى قمة الطموح التي تجسّد أمل العبد ورجاءه العظيم في رحمة الله الواسعة، فيقول: «وهب لي الجدّ في خشيتك والدوام في الاتصال بخدمتك حتى أسرح إليك في ميادين السابقين، وأُسرع إليك في البارزين، وأشتاق إلى قربك في المشتاقين، وأدنو منك دنوّ المخلصين... واجعلني من أحسن عبيدك نصيباً عندك، وأقربهم منزلة منك، وأخصّهم زلفة لديك، فإنّه لا يُنال ذلك إلاّ بفضلك...».

ونجد في الدعاء الذي يرويه أبو حمزة الثمالي عن الإمام زين العابدين عليه السلام لأسحار شهر رمضان المبارك نفس الفاصل الكبير بين (القاع) و(القمة). ففي البدء ينطلق من نقطة القاع، فيقول عليه السلام: «وما أنا يا ربّ وما خطري، هبني بفضلك، وتصدَّق عليّ بعفوك، أي رب جلّلني بسترك، واعف عن توبيخي بكرم وجهك».

«فلا تحرقني بالنار، وأنت موضع أملي، ولا تُسكنّي الهاوية فإنّك قرة عيني... ارحم في هذه الدنيا غربتي، وعند الموت كربتي، وفي القبر وحدتي، وفي اللّحد وحشتي، وإذا نُشرت للحساب بين يديك ذُلَّ موقفي، وارحمني صريعاً على الفراش تقلّبني أيدي أحبّتي، وتفضّل عليّ ممدوداً على المغتسل يقلّبني صالح جيرتي، وتحنّن عليّ محمولاً قد تناول الأقرباء أطراف جنازتي، وجُد عليّ منقولاً قد نزلتُ بك وحيداً في حفرتي».

ثم بعد ذلك يقول عليه السلام في مرحلة الطموح وقمة الدعاء: «اللّهمّ إنّي أسألك من خير ما سألك منه عبادك الصالحون، يا خير من سُئل وأجود من أعطى... أعطني سؤلي في نفسي وأهلي وولدي، وأرغد عيشي، وأظهر مروّتي، وأصلح جميع أحوالي، واجعلني ممن أطلت عمره، وحسّنت عمله، وأتممت عليه نعمتك، ورضيت عنه، وأحييته حياة طيّبة... اللّهمّ خصّني بخاصة ذكرك...، واجعلني من أوفر عبادك نصيباً عندك في كل خير أنزلته أو تُنزله».

وهذه الرحلة من (القاع) إلى (القمة) هي تعبير عن حركة الإنسان إلى الله، وهي رحلة (أمل)، و(رجاء)، و(طموح)، و عندما يكون أمل الإنسان ورجاؤه وطموحه في الله فلا حدّ لغاية هذه الرحلة.

الوسائل الثلاثة:

ويتوسل علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام إلى الله في هذه الرحلة بثلاث وسائل. وقد أمرنا الله تعالى أن نبتغي إليه الوسائل. قال تعالى:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ**﴾[1]، وقال: ﴿**أُولَئكَ الَّذينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ**﴾[2]. والوسائل التي يتوسّل بها الإمام إلى الله في هذه الرحلة هي: (الحاجة)، و(السؤال)، و(الحب). ولله درّه من معلّم في الدعاء، يعرف ماذا يطلب من الله تعالى، وكيف يطلب، وأين مواضع رحمة الله.

الوسيلة الأُولى: (الحاجة): فالحاجة نفسها من منازل رحمة الله، فإنّ الله تعالى كريم ينزل رحمته على خلقه حتى الحيوان والنبات لحاجتهم من دون سؤال وطلب. دون أن يكون معنى هذا الكلام نفي السؤال والطلب، فإنّ السؤال والطلب بابان آخران من أبواب رحمة الله إلى جنب (الحاجة).

فإذا عطش الناس سقاهم ربُّهم، وإذا جاعوا أطعمهم، وإذا عروا أكساهم ﴿**وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**﴾[3]، حتى ولو لم يعرفوا الله تعالى، ولم يعرفوا كيف يدعونه، وماذا يطلبون منه، «يا من يعطي من

(١) المائدة: ٣٥.

(٢) الاسراء: ٥٧.

(٣) الشعراء: ٨٠.

سأله، يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنّناً منه ورحمة»[1].

وفي مناجاة أميرالمؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام نجد التفاتاً رائعاً لهذه النكتة الربّانية في استنزال رحمة الله تعالى:

«مولاي يا مولاي أنت المولى وأنا العبد، وهل يرحم العبد إلاّ المولى. مولاي يا مولاي أنت المالك وأنا المملوك، وهل يرحم المملوك إلاّ المالك. مولاي يا مولاي أنت العزيز وأنا الذليل، وهل يرحم الذليل إلاّ العزيز. مولاي يا مولاي أنت الخالق وأنا المخلوق، وهل يرحم المخلوق إلاّ الخالق. مولاي يا مولاي أنت العظيم وأنا الحقير، وهل يرحم الحقير إلاّ العظيم، مولاي يا مولاي أنت القوي وأنا الضعيف، وهل يرحم الضعيف إلاّ القوي. مولاي يا مولاي أنت الغني وأنا الفقير، وهل يرحم الفقير إلاّ الغني. مولاي يا مولاي أنت المعطي وأنا السائل، وهل يرحم السائل إلاّ المعطي، مولاي يا مولاي أنت الحيّ وأنا الميّت، وهل يرحم الميّت إلاّ الحيّ. مولاي يا مولاي أنت الباقي وأنا الفاني، وهل يرحم الفاني إلاّ الباقي. مولاي يا مولاي أنت الدائم وأنا الزائل، وهل يرحم الزائل إلاّ الدائم. مولاي يا مولاي

(١) من أدعية شهر رجب.

أنت الرازق وأنا المرزوق، وهل يرحم المرزوق إلاّ الرازق. مولاي يا مولاي أنت الجواد وأنا البخيل، وهل يرحم البخيل إلاّ الجواد. مولاي يا مولاي أنت المعافي وأنا المبتلى، وهل يرحم المتبلى إلاّ المعافي. مولاي يا مولاي أنت الكبير وأنا الصغير، وهل يرحم الصغير إلاّ الكبير. مولاي يا مولاي أنت الهادي وأنا الضالّ، وهل يرحم الضالّ إلاّ الهادي. مولاي يا مولاي أنت الغفور وأنا المذنب، وهل يرحم المذنب إلاّ الغفور. مولاي يا مولاي أنت الغالب وأنا المغلوب، وهل يرحم المغلوب إلاّ الغالب. مولاي يا مولاي أنت الرب وأنا المربوب، وهل يرحم المربوب إلاّ الرب. مولاي يا مولاي أنت المتكبّر وأنا الخاشع، وهل يرحم الخاشع إلاّ المتكبّر. مولاي يا مولاي ارحمني برحمتك، وارضَ عني بجودك وكرمك وفضلك. يا ذا الجود والإحسان، والطول والامتنان»[1].

والإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في هذه الفقرات من المناجاة الرائعة يتوسّل إلى الله تعالى بحاجته وفقره، ويضع حاجة العبد وفقره في موضع استنزال رحمة الله.

(١) مفاتيح الجنان، أعمال مسجد الكوفة، مناجاة أميرالمؤمنين عليه السلام.

فإنّ المخلوق يستنزل رحمة الخالق، والحقير يستنزل رحمة العظيم، والضعيف يستنزل رحمة القوي، والفقير يستنزل رحمة الغني، والمرزوق يستنزل رحمة الرازق، والمبتلى يستنزل رحمة المعافي، والضالّ يستنزل رحمة الهادي، والمذنب يستنزل رحمة الغفور، والمتحيّر يستنزل رحمة الدليل، والمغلوب يستنزل رحمة الغالب.

وهذه من السنن الكونيّة لله تعالى، ولن تتبدل سنن الله، فمهما كانت حاجته وفقره كانت رحمة الله وفضله عندهما. وكما ينزل الماء إلى الموضع المنخفض، تنزل رحمة الله تعالى على مواضع الحاجة، وذلك أنه تعالى كريم جواد، والكريم يرعى مواضع الحاجة ويخصّها برحمته.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء الاسحار الذي علّمه لأبي حمزة الثمالي: «أعطني لفقري، وارحمني لضعفي»، فيجعل من فقره وضعفه وسيلةً يتوسّل بهما إلى رحمة الله.

وطبيعي أنّ هذا الكلام لا يمكن أن يؤخذ على إطلاقه، وعلى طريقة العامل الواحد، فإنّ هناك عوامل أُخرى تستنزل رحمة الله تعالى، وهناك موانع وحجب تحجب رحمة الله، وهناك عامل الابتلاء

في سنن الله تعالى.

وعندما نقول: إنّ الحاجة والفقر يستنزلان رحمة الله تعالى ينبغي أن نأخذ هذا الكلام ضمن هذا النظام الإلهي الشامل. وهذا باب واسع من المعرفة لا نريد أن ندخله الآن، وعسى أن يوفقني الله تعالى لشرح هذه الحقيقة بما تستحق من التوضيح.

ونجد في القرآن الكريم نماذج من عرض (الحاجة) و(الفقر) لاستنزال رحمة الله تعالى، واستنزال الإجابة من عند الله. وللحاجة إجابة، كما للدعاء وللسؤال إجابة، فإنّ عرض الحاجة نحوٌ من الدعاء. وهذه النماذج يذكرها القرآن على لسان عباد الله الصالحين:

١ـ من هذه النماذج حاجة العبد الصالح الممتحن والمبتلى أيوب عليه السلام، عندما نادى الله تعالى وهو في غمرة الابتلاء والمحنة: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾(1).

ولا دعاء في هذه الفقرة التي يحكيها القرآن الكريم عن لسان هذا

(١) الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤.

العبد الصالح المبتلى ولكنّ الله تعالى يقول: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ وكأنَّ عرض الحاجة والفقر نحوٌ من الدعاء.

٢ـ والعبد الصالح ذوالنون يعرض فقره وحاجته وظلمه لنفسه على الله تعالى، وهو في ظلمات بطن الحوت في البحر: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾(1).

والاستجابة كذلك ليست للطلب وإنّما للحاجة والفقر، فلم يزد العبد الصالح ذوالنون عليه السلام على هذه الكلمة ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فاستجاب الله تعالى له، ونجّاه من الغمّ ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾.

٣ـ ونلتقي في القرآن بكلمة كليم الله موسى بن عمران وأخيه هارون، عندما دعاهما الله تعالى ليحملا رسالته إلى فرعون ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى

(١) الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨.

* **﴿قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى﴾**(1)، فلم يطلبا من الله تعالى أن يحميهما من فرعون وجلاوزته، ويوفّر لهما الأمن الذي يحتاجانه. وإنّما ذكرا لله ضعفهما وخوفهما من بطش فرعون، وقوّة فرعون وطغيانه **﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى﴾**، فاستجاب الله لحاجتهما إلى الحماية والدعم والتأييد **﴿قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾**(2).

٤ـ والنموذج الرابع كلمة العبد الصالح نوح عليه السلام، عندما عرض على الله حاجته إلى إنقاذ ابنه من الطوفان **﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾**(3)، وهو طلب في غاية الأدب من هذا العبد الصالح، فلم يطلب من الله تعالى إنقاذ ابنه، وإنّما عرض حاجته إلى انقاذ إبنه من الغرق فقط.

ومهما يكن من أمر فإنّ (الحاجة) و(الفقر) من مواطن نزول رحمة الله تعالى. وحتى الحيوانات والنباتات تستنزل رحمة الله تعالى

(1) طه: ٤٣ ـ ٤٥.

(2) طه: ٤٦.

(3) هود: ٤٥.

بحاجاتها وفقرها.

فإذا عطشت سقاها الله تعالى ورواها، وإذا جاعت أشبعها الله تعالى وأطعمها. وهذا باب واسع من المعرفة؛ وقد سبق أن بيّنتُ طرفاً من ذلك في كتاب (شرح الصدر) من سلسلة (في رحاب القرآن) وعسى أن يقيّض الله تعالى من يشرح ذلك.

الوسيلة الثانية: (الدعاء): وهو من مفاتيح رحمة الله تعالى.

يقول تعالى **﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾**(1)، ويقول **﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾**(2).

الوسيلة الثالثة: (الحب)، وإنّ العبد يستنزل من رحمة الله تعالى بـ(الحب) ما لا يستنزله بأمر آخر.

والآن تأمّلوا في هذه الوسائل الثلاثة التي يتوسّل بها زين العابدين عليه السلام إلى الله تعالى:

«رضاك بغيتي، ورؤيتك حاجتي، وعندك دواء علّتي، وشفاء غلّتي، وبرد لوعتي، وكشف كربتي». وهذه هي وسيلة (الحاجة

(1) غافر: ٦٠.

(2) الفرقان: ٧٧.

والفقر).

«جوارك طلبي، وقربك غاية سؤلي... فكن أنيسي في وحشتي، ومقيل عثرتي، وغافر زلّتي، وقابل توبتي، ومجيب دعوتي، ووليّ عصمتي، ومغني فاقتي». وهذه وسيلة (الدعاء).

«فأنت لا غيرك مرادي، ولك لا لسواك سهري وسهادي، ولقاؤك قرّة عيني، ووصلك منى نفسي، وإليك شوقي، وفي محبتك ولهي، وإلى هواك صبابتي». وهذه وسيلة (الحب).

والآن نتأمل في هذه الفقرة من كلام الإمام، وهي رائعة من روائع الدعاء، وإنّ للدعاء روائع كما للفن والأدب، يقول: «فقد انقطعت إليك همّتي، وانصرفت نحوك رغبتي، فأنت لا غيرك مرادي، ولك لا لسواك سهري وسهادي، ولقاؤك قرّة عيني».

وفي (الانقطاع) ما ليس في (التعلّق) والإمام لا يقول: فقد تعلّقت بك همتي، لأنّ التعلّق بالله لا ينفي التعلّق بغيره، وإن كان العبد صادقاً في تعلّقه بالله، وإنّما يقول: فقد انقطعت إليك همّتي، فإنّ الانقطاع يتضمّن معنًى إيجابياً وسلبياً معاً، فإنه انقطاع (من الخلق إلى الله)، والانقطاع (من الخلق) هو المعنى السلبي الذي يقصده الإمام في هذه

الفقرة، و(إلى الله) هو المعنى الإيجابي الذي يقصده.

فإنّ الاخلاص في الحب (فصل) و(وصل)؛ فصل مما عدا الله، ووصل بالله وبمن يحبّ ويأمر بحبّه، وهما وجهان لقضية واحدة.

فإنّ (الحبّ) إذا صفا وخلص تضمّن وجهين: (ولاءً) و(براءةً) و(وصلاً) و(فصلاً) و(انقطاعاً) من الخلق (إلى الله).

ونفس المعنى تتضمّنه الفقرة الثانية: «وانصرفت إليك رغبتي».

فإنّ الانصراف إلى الله (إعراض) و(إقبال) معاً، (إعراض) عمّا عدا الله (وإقبال) على الله وما يأمر به ويحبّه.

ثم يأتي التأكيد الثالث لهذه الحقيقة، وهو أبلغها جميعاً، ويحمل من معاني الحب والانصراف إلى الله، والانقطاع عمّا عداه ما يعجز عن أدائه ووصفه التعبير: «فأنت لا غيرك مرادي ولك لا لسواك سهري وسهادي».

و(السَّهَر) و(السُّهاد) بخلاف النوم، إلاّ أن (السَّهَر) هو قيام الليل في حالة (الأُنس)، و(السهاد) نحوٌ من الأرق ينتاب الإنسان عندما يشغله شيء يهمه، ويسلب عنه النوم، وهو هنا الحنين والشوق إلى الله.

إذن هما يمثّلان حالتين من حالات الحب: (الأُنس) و(الشوق).

أُنسٌ بذكر الله وبحضوره عند العبد حيث يحس بحضور الله في دعائه، وذكره، ومناجاته، وصلاته، وشوقٌ إلى لقاء الله.

والمحب يشعر بهذا وذاك معاً عندما يقف بين يدي الله تعالى، وهذا وذاك ينفيان عنه النوم ويؤرّقانه، حين يستسلم الناس للنوم، ويفقدون وعيهم وشعورهم بالنوم.

والنوم حاجة، من دون شك، يأخذ الناس جميعاً حظّهم منه، الصالحون والطالحون، وحتى الأنبياء والصديقون ينامون.

ولكن فرق هائل بين من يأخذ حاجته من النوم، كما يأخذ حاجته من الأكل والشرب، وبين من يستسلم للنوم ويتحكّم النوم فيه.

أمّا أولياء الله فلا يستسلمون للنوم، وإنّما النوم عندهم حاجة يأخذون منه حظّهم. ولقد كان رسول الله ﷺ لا ينام إلاّ هنيّة حتى يقوم بين يدي الله، وكان يأمر أن يوضع وَضوؤه عند رأسه ليقوم بين يدي الله، كلّما أخذ نصيباً من هذه الحاجة الطبيعية.

ولقد كان يفرش له الفراش الوثير والمريح فيأمر برفعه لئلاّ يستدرجه ذلك للاستسلام للنوم.

وكان ينام على الحصير الخشن حتى أثّر الحصير في جنبه لكيلا

يستغرق في النوم،

وقد أودع الله تعالى في هدأة الليل من كنوز مناجاته وذكره وقربه ما ليس في النّهار، وللّيل رجال كما للنهار رجال، يقومون إذا نام الناس، وينشطون إذا خمل الناس ويعرجون إلى الله إذا استسلم الناس للنوم وسقطوا على فراشهم.

ولليل دولة كما للنهار دولة، وفي الليل كنوز كما في النهار كنوز. والناس يعرفون دولة النهار ورجاله وكنوزه، وقليل من الناس من يعرف قيمة دولة الليل وكنوزه ورجاله. فإذا أخذ الإنسان من دولتي الليل والنهار معاً كان سوياً راشداً متوازناً.

ولقد كان رسول الله ﷺ من رجال الليل والنهار معاً، يأخذ من هذا وذاك بصورة متوازنة، يأخذ من الليل الحب والاخلاص والذكر، ويأخذ من النّهار القوة والسلطان والمال، لتمكين الدعوة وترسيخها وكانت ناشئة الليل تعينه، وتمكّنه من حمل عبء الرسالة الثقيل. يقول تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي**

اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً﴾[1].

ويعجبني أن أنقل هنا هذا النص من الحديث القدسي في اللّيل ورجاله.

روي أنه تعالى أوحى إلى بعض الصدّيقين: «إنّ لي عباداً من عبادي يحبّوني فأُحبّهم، ويشتاقون إليَّ وأشتاق إليهم، ويذكروني وأذكرهم، وينظرون إليَّ وأنظر اليهم، وإن حذوتَ طريقهم أحببتُك، وإن عدلت عنهم مقتّك. قال: يا رب، وما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي الشفيق غنمه، ويحنّون إلى غروب الشمس، كما يحنّ الطير إلى وكره عند الغروب، فإذا جنّهم الليل، واختلط الظلام، وفرشت الفرش، ونصبت الأسرّة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إليَّ أقدامهم وافترشوا إليَّ وجوههم، وناجوني بكلامي، وعلقوا إليَّ بأنغامي. فمن صارخ وباك، ومتأوّه شاك، ومن قائم وقاعد وراكع وساجد. بعيني ما يتحمّلون من أجلي، وبسمعي ما يشكون من حبّي، أول ما أعطيهم ثلاث:

١ـ أقذف من نوري في قلوبهم، فيخبرون عنّي، كما أُخبر عنهم.

(١) المزمل: ١ ـ ٧.

٢ـ والثانية: لو كانت السماوات والأرض في موازينهم لاستقللتها لهم.

٣ـ والثالثة: أُقبل بوجهي عليهم، أفترى من أقبلت بوجهي عليه يعلم أحد ما أريد أن أُعطيه؟»[1].

وروي عن الإمام الباقر عليه السلام: «كان مما أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران: «كذب من زعم أنّه يحبّني، فإذا جنّه الليل نام عنّي، يابن عمران، لو رأيت الذين يقومون لي في الدجى، وقد مثلت نفسي بين أعينهم، يخاطبوني وقد جللت عن المشاهدة، ويكلّموني وقد عززت عن الحضور. يابن عمران، هب لي من عينيك الدموع، ومن قلبك الخشوع، ثم ادعني في ظلمة الليالي تجدني قريباً مجيباً»[2].

وفي خطبة المتقين من (نهج البلاغة) يصف أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لهمّام حال أولياء الله في مناجاتهم إذا جنّهم اللّيل، وذِكرهم ووقوفهم بين يدي ربّهم، فيقول عليه السلام: «أمّا الليل فصافّون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتّلونها ترتيلاً، يحزِّنون به أنفسهم،

(١) لقاء الله: ١٠٤.

(٢) لقاء الله: ١٠١

ويستثيرون دواء دائهم، فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلّعت نفوسهم، إليها شوقاً، وظنّوا أنها نصب أعينهم، وإذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنّوا أنّ زفير جهنم وشهيقَها في أُصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم وأكفّهم، وركبهم وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله تعالى في فكاك رقابهم.

وأمّا النهار فحلماء، علماء، أبرار، أتقياء، قدبراهم الخوف بري القداحِ...»[1].

صورة أُخرى من صور الشوق إلى الله:

صورة أُخرى من صور الشوق إلى الله في مناجاة الإمام زين العابدين عليه السلام. يقول زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام: «إلهي فاجعلنا من الذين ترسّخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبّتك بمجامع قلوبهم، فهم إلى أوكار الأفكار يأوون، وفي رياض القرب والمكاشفة يرتعون، ومن حياض المحبّة بكأس

(١) نهج البلاغة: ٣٠٣.

الملاطفة يكرعون، وشرائع المصافاة يردون، قد كُشف الغطاء عن أبصارهم، وانجلت ظلمة الريب عن عقائدهم وضمائرهم، وانتفت مخالجة الشكّ عن قلوبهم وسرائرهم، وانشرحت بتحقيق المعرفة صدورهم، وعذب في معين المعاملة شربهم، وطاب في مجلس الأُنس سرّهم، وأمن في موطن المخافة سربهم، واطمأنت بالرجوع إلى ربّ الأرباب أنفسهم، وتيقّنت بالفوز والفلاح أرواحهم، وقرّت بالنظر إلى محبوبهم أعينهم، واستقر بإدراك السؤل ونيل المأمول قرارهم، وربحت في بيع الدنيا بالآخرة تجارتهم.

إلهي ما ألذ خواطر الإلهام بك على القلوب، وما أحلى المسير إليك بالأوهام في مسالك الغيوب، وما أطيب طعم حبّك، وما أعذب شرب قربك. فأعذنا من طردك وإبعادك، واجعلنا من أخصّ عارفيك وأصلح عبادك، وأصدق طائعيك وأخلص عُبّادك»[1].

ولست اريد هنا الوقوف للتأمّل عند هذه المناجاة التي هي رائعة من روائع أهل البيت عليهم السلام في الدعاء والمناجاة. ولكن أودّ أن أقف قليلاً عند هذه الجملة التي يبدأ بها الإمام علي بن الحسين عليه السلام مناجاته:

(١) مفاتيح الجنان: مناجاة العارفين.

«إلهي واجعلنا من الذين ترسَّخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبّتك بمجامع قلوبهم»، فإنّ صدور أولياء الله ـ كما يظهر من كلام الإمام ـ حدائق ذات بهجة، وذات ثمار طيبة، وإنّ صدور الناس على أنحاء: فمن الصدور مكاتب ومدارس للعلم، والعلم خير ونور، ولكن على أن يبقى الصدر حديقة للشوق إلى الله، ومن الصدور متاجر وبنوك وبورصات للمال تزدحم بالأرقام وجداول الإحصاء وحسابات الربح والخسارة. والمال والتجارة خيرٌ بشرط أن لا يكون الشغل الشاغل لقلب الانسان وصدره، ولا يكون همّه الذي لا يفارقه. ومن الصدور أراض سبخة ينبت فيها الشوك والحنظل والسموم والاحقاد والصراع على المال والسلطان والكيد والمكر بالآخرين. ومن الصدور ملاه وملاعب، والدنيا لهوٌ ولعبٌ لطائفة واسعة من الناس.

ومن الناس من ينشطر صدره إلى شطرين: شطر للسموم والاحقاد، والمكر والكيد، والشطر الآخر للّهو وللّعب. فإذا أقلقه الشطر الأول وسلب راحته واستقراره لجأ إلى الشطر الثاني، واستعان باللهو لكي ينقذ نفسه من عذاب الشطر الأول.

وأمّا صدور أولياء الله، فهي حدائق الشوق ـ كما يقول زين العابدين ـ ذات بهجة وثمار طيّبة، وقد ترسَّخت فيها أشجار الشوق وامتدت فيها جذورها، فليس الشوق إلى الله أمراً طارئاً يزول إذا ألحّ عليه الهوى أو أقبلت وتزيّنت له الدنيا، ولا يخفّ هذا الشوق ولا تذبل أوراقه إذا ضاقت بصاحبه الدنيا، وتراكمت عليه الابتلاءات، فإنّ أشجار الشوق إذا كانت راسخة في هذه الصدور تبقى مورقة وخضراء ومثمرة رغم كل العقبات والمتاعب.

وحالة الشوق حالة خفّة الروح، وهي حالة معاكسة للتثاقل والركون إلى الدنيا التي تتحدث عنها الآية الكريمة: ﴿**مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ**﴾[١]، إنّ النفس تثقل، وتترهّل، كلما تعلّق الإنسان بالدنيا ورضيها، وركن إليها فإذا تحرّر من الدنيا، وانتزع نفسه[٢] منها خف، فجذبه حبُّ الله تعالى والشوق إليه.

(١) التوبة: ٣٨.

(٢) ليس معنى التحرر من الدنيا تركها، فقد كان رسول الله متحرراً من الدنيا، وهو يعمل لتمكين الدعوة من الدنيا وإخضاع الدنيا لها.

ولنقف عند هذا الحد من استعراض صور الحبّ والشوق والأُنس من نصوص أدعية أهل البيت عليهم السلام: وننصرف إلى غير ذلك من مباحث (الحب الإلهي).

إخلاص الحب لله :

وهذه مقولة فوق مقولة توحيد الحب. فإنّ توحيد الحب لا ينفي أيّ حب آخر غير حب الله، ولكنه يحكّم حب الله تعالى ويغلّبه على أي حب آخر، فيكون حب الله هو الحب الغالب الحاكم ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ**﴾[١]، وهو من شروط الإيمان وفرع من فروع التوحيد.

أمّا إخلاص الحب لله فهو ينفي أيّ حب آخر غير حب الله، إلاّ أن يكون في امتداد حبّ الله (الحب لله، والبغض لله) وهو ليس من شؤون الإيمان والتوحيد، ولكنه من شؤون الصدّيقين ومقاماتهم. فإنّ الله تعالى يمكّن أولياءه وعباده الصالحين من تفريغ قلوبهم من كل حبّ وودّ غير حبّه وودّه.

(١) البقرة: ١٦٥.

وقد روي عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام: «القلب حرم الله، فلا تُسكن حرَم الله غير الله»[١]. وهذه صفة خاصة للقلب، فإنّ الجوارح تسعى وتتحرّك في الحياة باتجاهات وشؤون شتّى فيما أباحه الله تعالى وأجازه، أمّا القلب فهو حرم الله تعالى ولا ينبغي أن يحلّ فيه حبّ لغير الله وتعلّق بسواه.

والتعبير عن (القلب) في النص بـ(الحرم) دقيق ومعبّر؛ فإنّ الحرم منطقة آمنة ومغلقة على كل غريب، لا ينال أهلها سوء أو خوف، ولا يدخلها غريب، وكذلك القلب حرم الله الآمن، لا يدخله حبّ آخر غير حبّ الله، ولا يمسّ فيه حبّ الله سوء أو خوف.

ولذلك فإنّ الصدّيقين والأولياء من عباد الله يخلصون الحب لله، ولا يجمعون بين حبّ الله وحبّ آخر، مهما كان إلاّ أن يكون في امتداد حب الله.

وفي المناجاة التالية نلمس لوعة الحبّ وصدق الإخلاص في الحبّ في كلمات زين العابدين عليه السلام: «سيّدي إليك رغبتي، وإليك رهبتي، وإليك تأميلي، وقد ساقني إليك أملي، وعليك يا واحدي

(١) بحار الأنوار ٧٠: ٢٥

عكفت همّتي، وفيما عندك انبسطت رغبتي، ولك خالص رجائي وخوفي، وبك أنست محبّتي، وإليك ألقيت بيدي، وبحبل طاعتك مددت رهبتي، يا مولاي بذكرك عاش قلبي، وبمناجاتك برّدت أمل الخوف عني...»[1].

فالإمام عليه السلام في هذه المقطوعة من المناجاة يربط رغبته ورهبته وأمله كلّها بالله، ويعكف بهمّته كلّها عليه تعالى، ويجعل له خالص رجائه وخوفه.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أحبّوا الله من كلّ قلوبكم»[2]. وفي الدعاء عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «اللّهمّ إنّي أسألك أن تملأ قلبي حبّاً لك، وخشية منك، وتصديقاً لك، وإيماناً بك، وفرقاً منك، وشوقاً إليك»[3].

وإذا كان حبّ الله والشوق إليه ملء قلب العبد فلا يبقى في قلبه محلّ شاغر لحبّ آخر غير حبّ الله، إلاّ أن يكون في امتداد حبّه

(١) دعاء أبي حمزة الثمالي.
(٢) كنز العمال ٤٧: ٤٤.
(٣) بحار الأنوار ٩٨: ٨٩.

تعالى، وهو في الحقيقة من حبّ الله ومن الشوق إليه.

في الدعاء عن الإمام الصادق عليه السلام عند حضور شهر رمضان: «صلّ على محمّد وآل محمّد واشغل قلبي بعظيم شأنك، وأرسل محبّتك إليه حتى ألقاك وأوداجي تشخب دماً»[1]. وهو بمعنى إخلاص الحبّ لله، حيث يكون حبّ الله هو الشغل الشاغل للقلب وهمّه الذي لا يفارقه.

غيرة الله على عبده:

إنّ الله تعالى يحبّ عبده، ومن خصائص الحبّ الغيرة، فهو على قلب عبده غيور، يحبّ أن يخلص له عبده حبّه ولا يحبّ غيره، ولا يسمح بحبّ آخر أن يدخل قلبه.

وروي أن موسى بن عمران عليه السلام ناجى ربّه بالوادي المقدّس، فقال: «يا ربّ، إني أخلصت لك المحبّة منّي، وغسلت قلبي عمّن سواك» وكان شديد الحبّ لأهله، فقال الله تبارك وتعالى: «...انزع حبّ أهلك من قلبك إن كانت محبّتك لي خالصة»[2].

ومن غيرة الله تعالى على عبده أن يزيل حبّ الأغيار من قلب

(١) بحار الأنوار ٩٧: ٣٣٤.
(٢) بحار الأنوار ٨٣: ٢٣٦.

عبده، وإذا وجد أنّ عبده قد تعلّق قلبه بغيره سلبه عنه حتى يخلص قلب عبده لحبّه، وقد ورد في الدعاء عن الإمام الحسين‌عليه السلام: «أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبّائك، حتى لم يحبّوا سواك... ماذا وجد من فقدك، وما الذي فقد من وجدك، لقد خاب من رضي دونك بدلاً»(١).

ويعجبني أن أنقل بهذا الصدد هذه القصة المربّية التي يرويها الشيخ حسن البنّا في كتابه (مذاكرات الدعوة والداعية): يقول حسن البنّا: رزق الله الشيخ شلبي ـ أحد مشايخ مصر في العرفان والأخلاق ـ بنتاً في مرحلة متأخرة من عمره، فولع بها الشيخ ولعاً شديداً وشغف بها حتى كاد لا يفارقها إلى أن كبرت. وكان يزداد حباً لها كلّما شبّت وكبرت.

ولقد زاره الشيخ البنا مع جمع من أصحابه في بعض الليالي بعد انصرافهم من موكب فرح، انطلقوا فيه من دار قرب دار الشيخ شلبي في ليلة عيد ميلاد رسول الله‌صلى الله عليه وآله. وبعد عودتهم جلسوا مع الشيخ شلبي قليلاً. ولما أرادوا الانصراف قال لهم الشيخ بابتسامة رقيقة لطيفة: إن

(١) بحار الأنوار ٩٨: ٢٢٦.

شاء الله غداً تزورونني لندفن روحيّة.

وروحيّة هذه وحيدته التي رُزقها بعد إحدى عشرة سنة من زواجه، وكان لا يفارقها حتى في عمله. وقد شبّت وترعرعت، وأسماها (روحيّة) لانها كانت تحتل منه منزلة الروح.

يقول البنّا: فاستغربنا وسألناه، ومتى توفيت؟ فقال: اليوم قبيل المغرب. فقلنا: ولماذا لم تخبرنا فنخرج من منزل آخر بموكب التشييع؟ فقال: وما الذي حدث؟ لقد خفف عنّا الحزن، وانقلب المأتم فرحاً، فهل تريدون نعمة من الله أكبر من هذه النعمة؟

وانقلب الحديث إلى درس تصوّف يلقيه الشيخ، ويعلّل وفاة كريمته بغيرة الله على قلبه، فإنّ الله يغار على قلوب عباده الصالحين أن تتعلق بغيره، أو تنصرف إلى سواه. واستشهد بإبراهيم‌عليه السلام وقد تعلّق قلبه بإسماعيل فأمره الله أن يذبحه، ويعقوب‌عليه السلام إذ تعلّق قلبه بيوسف فأضاعه الله منه عدة سنوات. ولهذا يجب أن لا يتعلق قلب العبد بغير الله تبارك وتعالى، وإلاّ كان كاذباً في دعوى المحبّة.

وساق قصة الفضيل بن عياض وقد أمسك بيد ابنته الصغرى فقبّلها فقالت له: يا أبتاه أتحبني؟ فقال: نعم يا بنيّة، فقالت: والله ما كنت

أظنّك كذّاباً قبل اليوم. فقال: وكيف ذلك؟ ولم كذبت؟ فقالت: لقد ظننت أنك بحالك هذه مع الله لا تحبّ معه أحداً، فبكى الرجل وقال: يا مولاي، حتى الصغار قد اكتشفوا رياء عبدك الفضيل! وهكذا من هذه الأحاديث التي كان الشيخ شلبي يحاول أن يسرّي بها عنّا، ويصرف ما لحقنا من ألم لمصابه وخجل لقضاء هذه الليلة عنده. وانصرفنا وعدنا إليه في الصباح حيث دفنّا روحية. ولم نسمع صوت نائحة، ولم ترتفع حنجرة بكلمة نابية، ولم نرَ إلاّ مظاهر الصبر والتسليم لله العلي الكبير.

الحبّ لله وفي الله:

يبقى علينا أن نجيب عن السؤال التالي، فقد نفسر إخلاص الحبّ لله بهذا المعنى على خلاف طبيعة الإنسان وفطرته، فإنّ الله تعالى فطر الإنسان على حب أشياء كثيرة، وكُره أشياء كثيرة، وإخلاص الحبّ لله بهذا المعنى ينافي هذه الفطرة التي فطر الله تعالى خلقه عليها.

والجواب: أنّ إخلاص الحبّ لله ليس بمعنى التنكّر للفطرة، وإنّما هو بمعنى توجيه الحب والكره من خلال ما يحبّ الله تعالى وما يكره. فالله تعالى لا يريد من عبده وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أن ينتزع

حبّ أهله من قلبه، وإنّما يريد أن يكون حبّه لأهله من خلال حبّه، وأن يكون حبّه هو المصدر الوحيد لكلّ حبّ في قلبه. وبتعبير آخر: إنّ الذي يطلبه الله تعالى من عبده وكليمه موسى بن عمران عليه السلام هو ربط كلّ حبّ بقناة حبّه تعالى، فيكون عندئذ حبّه لأهله تكريساً لحبّه تعالى، وهو معنًى دقيق، وأُسلوب رائع في التربية لا يناله إلاّ من اختصّه الله تعالى بحبّه واصطفاه. فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو من أكثر الناس خلوصاً وصفاءً ونقاءً كان يقول: «حُبِّب إليَّ من دنياكم: النساء، والطيب، وقرّة عيني في الصلاة»[1].

وليس من شكّ أنّ هذا الحبّ هو من الحبّ الذي يقع في امتداد حبّ الله. فإن أحبّ هذه الثلاثة إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة، فهي قرّة عينه. وليس من شك أنّ حبّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لها يقع في امتداد حبّه لله تعالى.

فليس في (إخلاص الحبّ لله) تخريب للفطرة وتشويش للطبيعة التي خلقها الله تعالى، وإنّما هو إعادة لتنظيم خارطة الحبّ والبغض في حياة الإنسان بهذا الملاك الجديد الذي يطرحه الإسلام.

(١) الخصال: ١٦٥.

فيبقى حبّ الإنسان الطبيعي في مواضعه، ولكن ضمن تنظيم جديد يكرّس حبّ العبد لله تعالى بدل أن يضعفه ويشوّش عليه.

ولهذا السبب فقد ورد تأكيد بليغ في النصوص الإسلامية في قيمة (الحب لله وفي الله). فعن أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «المحبّة لله أقرب نسب»[١].

وعنه عليه السلام أيضاً: «المحبّة في الله آكد من وشيج الرحم»[٢].

والتعبير دقيق ويعتمد على أصل فكري مهم، فإنّ للناس في حياتهم أنساباً ووشائج من العلاقات. ومن أوثق هذه الوشائج وشيجة الرحم. والعلاقة بالله تعالى آكد من وشيجة الرحم. وإذا ربط الإنسان حبّه وتعلّقه بهذه الوشيجة. وأحبّ من خلالها، وأبغض من خلالها، كان أكمل النسب وآكد الوشائج.

وإنّما يكون آكد الوشائج لأن الحبّ إذا كان لغير الله فقد يتغيّر وقد يختلّ، وقد يتأثّر بالمؤثّرات التي تغيّر وجه الناس بعضهم لبعض. أمّا إذا كان حبّ الإنسان لأخيه لله فإنّه آكد وأقوى، وأكثر ثباتاً تجاه

(١) ميزان الحكمة ٢: ٢٣٣.

(٢) نفس المصدر.

المؤثّرات والعوامل المضادّة المختلفة.

وليس فقط إخلاص الحبّ لله لا ينفي التعلّقات الطبيعية في نفس الإنسان، وإنّما يؤكّدها أيضاً ويرسّخها بعد أن يُنظّمها من خلال القناة الكبرى، التي تُنظّم كلّ حبّ الصدّيقين وأولياء الله. فيكون أفضل الناس عند الله أكثرهم حبّاً لأخيه المؤمن في الله. عن الصادق عليه السلام: «ما التقى مؤمنان قطّ إلاّ كان أفضلهما أشدّهما حبّاً لأخيه»[١].

وروي عنه عليه السلام أيضاً: «إنّ المتحابّين في الله يوم القيامة على منابر من نور، قد أضاء نور أجسادهم ونور منابرهم كل شيء حتى يُعرفوا به، فيقال: هؤلاء المتحابّون في الله»[٢].

وروي أنّ الله تعالى قال لموسى بن عمران عليه السلام: «هل عملت لي عملاً؟ قال: صلّيت لك وصمت، وتصدّقت وذكرت لك، فقال الله تبارك وتعالى: أمّا الصلاة فلك برهان، والصوم جُنّة، والصدقة ظلّ، والذكر نور، فأي عمل عملت لي؟ قال موسى عليه السلام: دلّني على العمل الذي هو لك. قال: ياموسى، هل واليت لي وليّاً وهل عاديت لي عدوّاً

(١) بحار الأنوار ٧٤: ٣٩٨.

(٢) بحار الأنوار ٧٤: ٣٩٩.

قط؟ فعلم موسى أنّ أفضل الأعمال الحبّ في الله والبغض في الله»[1].

والحديث دقيق، فإنّ الصلاة يمكن أن يقدم عليها الإنسان لحبّه لله، ويمكن أن يقدم عليها لتكون برهاناً له في الجنّة. والصوم يمكن أن يقدم عليه الإنسان حبّاً لله، ويمكن أن يقوم به ليكون جُنّة له من النار. أمّا حبّ أولياء الله وبغض أعدائه فلا يكون إلاّ حبّاً لله.

المصدر الأول للحب:

من أين نستقي حبّ الله؟ هذا سؤال مهم في بحثنا هذا. فما دمنا قد عرفنا قيمة حب الله، فلابدّ أن نعرف من أين نأخذ هذا الحب. وما هو مصدره؟

وإجمال الجواب أنّ الله تعالى هو مصدر الحبّ ومبدؤه وغايته. ولابدّ لهذا الإجمال من تفصيل، وإليك هذا التفصيل:

١ـ يحبّ الله عباده:

إنّ الله تعالى يحبّ عباده، ويرزقهم، ويستر عليهم، ويهبهم من المواهب والنعم مالا يحصيه أحد، ويعفو عنهم، ويتوب عليهم،

(١) بحار الأنوار ٦٩: ٢٥٣.

ويسدّدهم، ويرزقهم التوفيق، ويهديهم صراطه المستقيم، ويتولاّهم برعايته وفضله، ويدفع عنهم السوء والشرّ، وهذه جميعاً أمارات الحبّ.

٢ـ ويمنحهم حبّه ودّه:

ومن حبّ الله تعالى لعباده أنه يحبّهم، ويرزقهم حبّه. وأمر هذا الحبّ غريب، فإنّ الله تعالى هو واهب الحبّ، وهو الذي يتلقّى الحبّ من عباده. يهبهم الجذبة بعد الجذبة، ثم يجذبهم إليه بتلك الجذبة.

ونحن نجد في نصوص الأحاديث والأدعية إشارات متكررة إلى هذا المعنى. ففي المناجاة الثانية عشرة للإمام زين العابدين عليه السلام: «إلهي، فاجعلنا من الذين ترسّخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبّتك بمجامع قلوبهم». وقد شرحنا هذا النص من قبل.

وفي المناجاة الرابعة عشرة: «أسألك أن تجعل علينا واقية تنجينا من الهلكات، وتجنّبنا من الآفات، وتُكنّنا من دواهي المصيبات، وأن تُنزل علينا من سكينتك، وأن تغشّي وجوهنا بأنوار محبّتك، وأن تؤوينا إلى شديد ركنك، وأن تحوينا في أكناف عصمتك، برأفتك ورحمتك يا أرحم الراحمين».

وفي المناجاة الخامسة عشرة (مناجاة الزاهدين): «إلهي، فزهّدنا فيها، وسلّمنا منها بتوفيقك وعصمتك، وأنزع عنّا جلابيب مخالفتك، وتولّ أُمورنا بحسن كفايتك، وأجمل صلاتنا من فيض مواهبك، وأغرس في أفئدتنا أشجار محبّتك، وأتمم لنا أنوار معرفتك، وأذقنا حلاوة عفوك ولذّة مغفرتك، وأقرر أعيننا يوم لقائك برؤيتك، وأخرج حبّ الدنيا من قلوبنا كما فعلت بالصالحين من صفوتك، والأبرار من خاصّتك، برحمتك يا أرحم الراحمين».

وفي التكملة التي يذكرها السيد ابن طاووس لدعاء الإمام الحسين عليه السلام في عرفة: «كيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟ عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً... فاهدني بنورك إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك... وصنّي بسرّك المصون... واسلك بي مسلك أهل الجذب، إلهي أغنني بتدبيرك لي عن تدبيري، وباختيارك عن اختياري، وأوقفني عن مراكز اضطراري... أنت الذي أشرقتَ الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحّدوك. وأنت الذي أزلت الاغيار عن قلوب أحبّائك حتى لم يحبّوا سواك، ولم يلجأوا إلى غيرك، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حيث استبانت لهم المعالم. ماذا وجد من فقدك؟ وما الذي فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضي دونك بدلاً، ولقد خسر من بغى عنك متحوّلاً، كيف يُرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان؟ وكيف يُطلب من غيرك وأنت ما بدّلت عادة الامتنان؟ يا من أذاق أحبّاءه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملّقين، ويا من ألبس أولياءه ملابس هيبته، فقاموا بين يديه مستغفرين... إلهي أطلبني برحمتك حتى أصل إليك، واجذبني بمنّك حتى أقبل عليك»[1].

٣ـ ويتحبّب إليهم:

والله تعالى يتحبّب إلى عباده، فيغدق عليهم النعم ليُحبّوه، وإنّ النعم في القلوب الواعية والمدركة تحبّب الله تعالى إلى الذين ينعم عليهم.

في دعاء علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في الأسحار: «تتحبّب إلينا بالنعم، ونعارضك بالذنوب، خيرك إلينا نازل، وشرّنا إليك صاعد، ولم يزل ولا يزال ملك كريم يأتيك عنّا في كل يوم بعمل قبيح، فلا

١) بحار الأنوار ٩٨: ٢٢٦.

يمنعك ما يأتي منّا من ذلك أن تحوطنا برحمتك، وتتفضّل علينا بآلائك، فسبحانك ما أحلمك وأعظمك وأكرمك مُبدئاً ومُعيداً»[1].

والمقارنة بين ما هو النازل من لدن الله إلى العبد من نعم وفضل وإحسان وجميل وعفو وستر، وبين ما هو الصاعد من قبل العبد إلى الله من قبيح وشرٍّ يُشعر العبد بالخجل من مولاه، فهو يقابل هذا الحبّ والتحبّب من جانب الله تعالى بالإعراض والتبغّض إليه.

وما أكثر بؤس الإنسان وشقاءه إذا كان يقابل حبّ الله تعالى له وتحبّبه إليه بالإعراض والتبغض.

تأمّلوا في هذه الكلمات من دعاء الافتتاح للإمام الحجة عليه السلام: «إنّك تدعوني فأُولّي عنك، وتتحبّب إليَّ فأتبغّض إليك، وتتودّد إليَّ فلا أقبل منك، كأنّ لي التطوّل عليك، فلم يمنعك ذلك من الرحمة بي، والإحسان إليَّ والتفضّل عليّ»[2].

«خيرك إلينا نازل، وشرّنا إليك صاعد»[3].

---

(١) بحار الأنوار ٩٨: ٨٥

(٢) مفاتيح الجنان، دعاء الافتتاح.

(٣) بحار الأنوار ١٨: ٨٥

الفهرس